المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى
في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

سجدات التلاوة في القرآن الكريم وأثرها في تعظيم الله في ضوء الهدايات القرآنية

اسم الباحث

أ.د / عبدالله بن سالم بن يسلم بافرج

أ. د. عبد الله بن سالم بن يسلم بافرج

سجدات التّلاوة في القرآن الكريم

وأثرها في تعظيم الله تعالى في ضوء الهدايات القرآنية

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النسا]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة[1].

من المواضيع التي ينبغي دراستها، وإمعان النظر فيها لتجليتها، وإيضاح الهدايات فيها= سجدات التِّلاوة في القرآن الكريم؛ وذلك لما لها من أثر في تعظيم الله تعالىٰ، فحاولتُ جاهدًا الكتابة في هذا الموضوع، ووسمت البحثَ بـ: (**سجدات التلاوة في القرآن الكريم وأثرها في تعظيم الله تعالىٰ في ضوء الهدايات القرآنية**).

أسباب اختيار الموضوع:

أسباب اختيار الموضوع ترجع لأمور، أهمُّها:

١- أنَّ سجدات التَّلاوة في القرآن الكريم لها أحكام وحكم عظيمة ينبغي التنبه لها.

٢- أهمية استشعار أثر سجدات التلاوة في تعظيم الله تعالىٰ.

٣- المشاركة في المؤتمر القرآني الدولي الثاني في هدايات القرآن الكريم.

هدف البحث:

إظهار أثر سجدات التلاوة في تعظيم الله تعالىٰ.

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي رواها جابر بن عبدالله وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، عن النَّبيِّ ﷺ، أخرجها مسلم (٢٠٤٥).

الدِّراسات السَّابقة:

لم أقف علىٰ دراسة سابقة في هذا الموضوع بهذا العنوان ولله الحمد، والذي وقفتُ عليه بحثٌ لفضيلة الدكتور عبد العزيز بن محمد السَّدحان بعنوان: (التِّبيان في سجدات القرآن). والإضافة في بحثي: أنَّه يبرز تعظيم الله تعالىٰ من خلال هدايات القرآن الكريم في سجدات التِّلاوة.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تعتبر دراسة سجدات التِّلاوة من الأمور التي ينبغي علىٰ أهل العلم أن يعتنوا بها؛ لما فيها من إبراز تعظيم الله تعالىٰ، وهذا البحث يجلي شيئًا من ذلك التعظيم.

وتتلخص مشكلة البحث فيما يلي:

١- اختلاف العلماء رحمهم الله في تحديد عدد السَّجدات في القرآن الكريم.

٢- أساليب الأمر بالسُّجود.

٣- انعدام الأبحاث المتخصصة في هذا الموضوع.

٤- لم يسبقني أحد في الكتابة في هذا الموضوع بالصُّورة المرسومة له.

لذلك سيكون هذا البحث إن شاء الله في: **سجدات التلاوة في القرآن الكريم وأثرها في تعظيم الله تعالىٰ في ضوء الهدايات القرآنية.**

ومن استعراض المشكلة فيما سبق يمكن صياغة تساؤلات الدِّراسة في أربعة أسئلة رئيسة، هي:

١- ما تعريف سجود التلاوة؟

٢- ما حكم سجود التلاوة؟

٣- ما هي آداب سجود التلاوة؟

٤- من هم الساجدون لله وما أثره في تعظيم الله تعالىٰ؟

خطة البحث:

تكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس وفق الترتيب الآتي:

المقدمة: فيها أسباب اختيار الموضوع، وهدفه، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث وتساؤلاته، وخطة البحث، ومنهجه.

المبحث الأول: سجود التلاوة حقيقته وأحكامه، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف سجود التلاوة.

المطلب الثاني: عدد سجدات التلاوة في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: أساليب الأمر بالسجود.

المسألة الأولىٰ: الأمر للنبي صلىٰ الله عليه وسلم بالسجود.

المسألة الثانية: الأمر للمؤمنين بالسجود.

المسألة الثالثة: خطاب التحضيض للعموم علىٰ السجود.

المطلب الرابع: حال المشركين مع الأمر بالسجود.

المطلب الخامس: حكم سجود التلاوة.

المطلب السادس: آداب سجود التلاوة.

المبحث الثاني: الساجدون لله وأثره في تعظيم الله تعالىٰ، وفيه خمسة مطالب.

المطلب الأول: سجود الملأ الأعلىٰ، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ.

المطلب الثاني: سجود الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ.

المطلب الثالث: سجود أولوا العلم، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ.

المطلب الرابع: سجود المؤمنين، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ.

المطلب الخامس: سجود عموم المخلوقات، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: وتشمل فهرس المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

منهج البحث:

١- اعتمدت في البحث علىٰ طريقة المنهج الوصفي الذي يجمع بين الاستقراء والتحليل للآيات التي ورد فيها سجدات التلاوة.

٢- رتبت الآيات حسب خطة البحث.

٣- حاولت جاهدا إبراز أثر آيات السجود في تعظيم الله تعالىٰ.

٤- وثقت النصوص التي أنقلها، توثيقًا علميًا دقيقًا من مصادرها الأصلية، ما أمكنني ذلك.

٥- عزوت الآيات القرآنية إلىٰ سورها.

٦- خرجت الأحاديث التي ورد ذكرها، وذكرت أقوال أهل العلم في بيان درجتها.

٧- عند الإحالة إلىٰ صفحة النص المنقول فإن الإحالة تكون للصفحة التي فيها بدايته.

٨- المعول عليه في معرفة طبعات المصادر والمراجع هو الفهرس الخاص بذلك في آخر البحث، وقد التزمت طبعة واحدة لكل كتاب.

٩- ضبطت بالشكل ما يحتاج إلىٰ ضبط، مما قد يُشكل قراءته، ويلتبس نطقه.

١٠- ذيلت البحث بفهارس للمصادر والمراجع، والموضوعات.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالىٰ أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون موافقًا للصواب، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: سجود التلاوة حقيقته وأحكامه

المطلب الأول: تعريف سجود التلاوة

السُّجود بالضَّمِّ مصدر سَجد، وهو الخضوع مع خفض الرأس، وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان والحيوانات والجمادات(١)، فالسِّين والجيم والدَّالّ أصلٌ واحدٌ مطَّرد يدلُّ علىٰ تطامُن وذُلٍّ؛ يقال: سجد، إذا تطَامَنَ، وكلُّ ما ذَلَّ فقد سجد (٢)، ومنه: نخلة ساجدة إِذا أَمالها حملها، وسجدت النخلة إِذا مالت، ونخل سواجد مائلة(٣).

والسُّجود في الشّرع: يكون بوضع الجبهة والأنف والكفين والركبتين وأصابع القدمين علىٰ الأرض.

والسُّجُودُ ضربان:

الأول: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحقّ الثواب، نحو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ٦٢﴾ [النجم]، أي: تذلَّلوا له.

الثاني: سجود تسخير، وهو للإنسان والحيوانات والنّبات، وعلىٰ ذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرعد]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ [النحل]، فهذا سجود تسخير، وهو الدَّلالة الصَّامتة النَّاطقة المنبّهة علىٰ كونها مخلوقة، وأنّها خلق فاعل حكيم(٤).

وخصَّ السُّجود في الشَّريعة بالرُّكن المعروف من الصَّلاة، وما يجري مجرىٰ ذلك من سجود القرآن، وسجود الشُّكر(٥).

والتِّلاوة من تلو إذ اتبع، فالتاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع، يقال: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتَه، ومنه: تلاوةُ القُرآن؛ لأنّه يُتْبع آيةً بعد آية(٦). ومنه: جاءت الخيلُ تَتاليًا، أَي: مُتَتابِعَة،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٣٩٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٣٣).

(٣) اللسان (٣/ ٢٠٤، مادة: س ج د).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن (٣٩٦).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (٣٩٦).

(٦) معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٥١).

وناقة مُتْلٍ ومُتْلِية: يَتْلوها وَلدُها، أَي: يتبعها، وتَلَّىٰ الرَّجلُ صلاتَه: أَتْبَعَ المكتوبةَ التطوُّعَ، وتَلَوْتُ القُرآن تِلاوةً: قرأْته[١]. والتِّلاوة تختصُّ باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالاتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة. فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوة، لا يقال: تلوتُ رُقعتك، وإنَّما يقال في القرآن في شيءٍ إذا قرأتَه؛ وجب عليك اتِّباعه[٢].

وسجود التِّلاوة: السُّجود الذي يُؤدَّىٰ عند قراءة آية من آيات السَّجدة، وهو سجود واحد كسجود الصَّلاة[٣].

المطلب الثاني: عدد سجدات التلاوة في القرآن الكريم

ذكر العلماء في عدد سجدات التِّلاوة أقوالًا كثيرة وسأكتفي بذكر أبرز الأقوال:

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هن أربع عشرة»، أثبت سجدات المفصل وسجدة (ص)، وأسقط السجدة الثانية من (الحجِّ)[٤].

وقال مالك وطائفة رحمهم الله: «هي إحدىٰ عشرة» أسقطوا سجدات المفصل[٥].

وقال الشَّافعيُّ وطائفة رحمهم الله وهو مشهور مذهب أحمد[٦]: «أنهن أربع عشرة سجدة»؛ منها سجدتان في (الحجّ)، وثلاث في المفصل، وليست سجدة (ص) منهن، وإنَّما هي سجدة شكر[٧].

وقال أحمد في روايةٍ واللَّيث وإسحاق وابن وهب وابن حبيب من المالكية وابن المنذر وسُريجٌ من الشَّافعية وطائفة من أهل العلم رحمهم الله: «هنَّ خمس عشرة»، فأثبتوا الجميع[٨].

---

(١) اللسان (١٤/ ١٠٢، مادة: ت ل ا)

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١٦٧).

(٣) التعريفات للجرجاني (١٨٩).

(٤) فتح القدير لابن الهمام (٣/ ١١٤).

(٥) المدونة الكبرىٰ (١/ ١٩٩).

(٦) التعريفات للجرجاني (١٨٩).

(٧) الحاوي الكبير (٢/ ٤٦٣)، والمغني (٣/ ٨٥).

(٨) ينظر: شرح النووي لصحيح مسلم (٢/ ٣٥١)، والمغني (٣/ ٨٥).

وقبل التّرجيح بين الأقوال ينبغي العلم بأنَّ مواضع السَّجدات في القرآن نوعان:

الأوَّل: خبرٌ من الله تعالىٰ عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسنَّ للتَّالي والسَّامع وجوبًا أو استحبابًا أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السَّجدة أو سماعها.

الثَّاني: أمرٌ من الله تعالىٰ، وهذا لا فرقَ فيه بين أمر وأمر، وآيات الأوامر يكون السُّجود فيها بطريق الأولىٰ.

فالسَّاجد إمَّا متشبه بمن أُخبر عنه، أو ممتثل لما أُمر به، وعلىٰ التَّقديرين يُشرَعُ له السُّجود في الجميع. وهذا السُّجود شرعه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ عبوديةً عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذلُّلًا بين يديه(١).

وعلىٰ هذا فما أثبت الدَّليل بأنَّ النَّبيَّ ﷺ أو الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سجدوا فيه؛ فإنَّه يؤخذ به، ولا مجال للرَّأي والقياس في ذلك، وبالنَّظر في الأحاديث والآثار الواردة في سجود التِّلاوة نجد أنَّها تثبت خمس عشرة سجدة، وهذا هو الرَّاجح؛ لأنَّ النُّصوصَ تؤيِّده، والله أعلم؛ فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إنَّ رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدةً في القرآن، منها ثلاثٌ في المفصَّل، وفي الحجِّ سجدتان(٢).

والسَّجدات التي اختلفوا فيها هي: السَّجدة الثَّانية من (سورة الحجِّ)، وسجدة (سورة ص)، وسجدات سور المُفصَّل (النجم والانشقاق والعلق)، وكلُّها قد جاءت الأحاديث والآثار بإثباتها، وهي كالتالي:

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (٢/ ٤٠٨).

(٢) رواه أبو داود (١٤٠٣)، وابن ماجه (١٠٥٧)، والدَّارقطني (١٥٢٠)، والحاكم (٨١١).
والحديث اختلف أهل العلم في تصحيحه وتضعيفه؛ فحسّنه النَّوويُّ في (المجموع ٤/ ٦٠)، وصحَّحه في (المجموع ٤/ ٦٢)، وقال ابن الملقن في (البدر المنير ٤/ ٢٥٧): «وسكت عليه أبو داود؛ وهو مقتضٍ لحُسنه أو صحته عنده». ونقل ابن حجر في (التخليص الحبير ٢/ ٢٧) تضعيفه عن عبد الحقّ وابن القطان، وقال: «وفيه: عبد الله بن مُنَين وهو مجهول، والرَّاوي عنه الحارث بن سعيد العتقي وهو لا يُعرف أيضًا، وقال ابن مأكولا: ليس له غير هذا الحديث».
قال د. عبد العزيز السَّدحان في (التبيان في سجدات القرآن: ٦٤): والحديثُ وإن كان في إسناده ضعفٌ فله من الشواهد المرفوعة والموقوفة ما ينهض به عن درجة الضعف وهذه الشواهد - مرفوعة وموقوفة - منها ما نص علىٰ سجدة واحدة، ومنها ما نص علىٰ عدة سجدات، وهذه الشواهد منها ما هو ثابت بذاته، ومنها ما هو معتضد بغيره.

السَّجدة الثَّانية من (سورة الحجّ):

عن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قلتُ: يا رسول الله، فُضِّلت (سورة الحجّ) بأن فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدها فلا يقرأهما»(١)، وعن خالد بن معدان: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَىٰ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ»(٢)، وعن ابن عبَّاس، قال: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ بِسَجْدَتَيْنِ»(٣)، وعَنْ أَبِىٰ الدَّرْدَاءِ: أَنَّهُ كَانَ يَسْجُدُ فِي الْحَجِّ سَجْدَتَيْنِ(٤)، وقد رُوي عن عمر وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن عمر وابن عبَّاس وأبي موسىٰ الأشعريِّ وأبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أنَّهم سجدوا في (سورة الحجّ) سجدتين(٥).

قال ابن كثير: «فهذه شواهد يَشُدّ بعضها بعضًا»(٦).

سجدة (سورة ص):

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «(ص) لَيْسَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا»(٧).

وعَنْ أَبِىٰ سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ (ص)، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ؛ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ؛ تَشَزَّنَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ لِلسُّجُودِ»؛ فَنَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدُوا(٨).

---

(١) رواه الترمذي (٥٧٨)، وقال: «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي»، قال ابن كثير (التفسير ٥/ ٤٠٤): «وفي هذا نظر؛ فإنَّ ابن لَهيعة قد صَرَّح فيه بالسَّماع».

(٢) رواه البيهقي (٣٨٨٦)، وقال في (معرفة السُّنن والآثار ٣/ ٢٤٧.): «وهذا المرسل، إذا انضم إلىٰ رواية ابن لهيعة صار قويا».
وقال د. عبد العزيز السَّدحان: «والتَّحقيق أنَّ الحديث يرتقي إلىٰ درجة الحُسن أو الصِّحة، كما ذكر البيهقيُّ لا سيما بشواهده».

(٣) رواه البيهقي (٣٨٩٤).

(٤) رواه البيهقي (٣٨٩٥).

(٥) ينظر: معرفة السنن والآثار (٢/ ٢٤٣)، وما بعدها.

(٦) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٥).

(٧) رواه البخاريُّ (١٠٦٩).

(٨) رواه أبو داود (١٤١٢). وينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٤٣٨٩). والتّشَزُّن: التّأهُّب والتَّهيُّؤ للشيء والاسْتِعْداد له؛ مأخوذ من عُرْضِ الشيء وجانبه، كأنَّ المُتَشَزِّن يَدَع الطُّمأنينَة في جُلوسه، ويقعُد مُسْتَوْفزًا علىٰ جانب. انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ١١٥٠).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ في سجدة (سورة ص): «**سجدها داود النَّبيُّ توبةً، ونسجدها شكرًا**»(١).

وعن مُجَاهِد، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ؟ فَقَالَ: أَوَ مَا تَقْرَأُ: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ۝٩٠**﴾ [الأنعام]؟؛ فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ(٢).

وعنه أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ذَكَرَ سُجُودَ الْقُرْآنِ، فَذَكَرَ مِنْهَا (ص)(٣)؛ فَفِي هَذَا مَا قَدْ دَلَّ علىٰ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ جَعَلَهَا كَغَيْرِهَا مِنْ سُجُودِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهَا تُسْجَدُ لِتِلَاوَةٍ، لَا لِمَا سِوَاهَا كَمَا يُسْجَدُ غَيْرُهَا(٤).

وقال بالسُّجود فيها: عمرُ وعثمانُ وابنُ عمر والنُّعمانُ بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(٥)، وقال أيضًا بالسُّجود فيها جماعةٌ من التَّابعين -رحمهم الله- منهم: سفيانُ الثَّوريُّ وابنُ المبارك وطاووسٌ، وقال بالسُّجود فيها أيضًا أصحابُ الرَّأي وأحمد وإسحاق وأبو ثور(٦).

سجدة (سورة النَّجم):

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١**﴾، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا؛ وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ(٧).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِـ(النَّجْمِ) وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ(٨).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سجد في (النَّجم)، ثمَّ قام فوصل إليها بسورة(٩).

---

(١) رواه الطبراني في (المعجم الأوسط: ١٠٠٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٧)، وينظر: شرح مشكل الآثار (٧/ ٢٣٤).

(٣) شرح مشكل الآثار ٧/ ٢٣٧.

(٤) شرح مشكل الآثار ٧/ ٢٣٧.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٤٣٩٠).

(٦) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٥٨٧١)، وشعب الإيمان (٣/ ٤٤٢)، وشرح مشكل الآثار (٧/ ٢٣٥)، والتمهيد (١٩/ ١٣٢)، ونيل الاوطار (٣/ ١٢٠).

(٧) رواه البخاري (٤٨٦٣).

(٨) رواه البخاري (٤٨٦٢).

(٩) رواه عبد الرزاق (٥٨٨٠).

وجاء عن ابن مسعود وابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنَّهما سجدا في (سورة النَّجم)(١).

سجدة سورة الانشقاق:

قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾؛ فَسَجَدَ فِيهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَجَدَ فِيهَا(٢).

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سجد أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، ومَن هو خيرٌ منهما(٣).

سجدة (سورة العلق):

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾(٤).

وعن سعيد بن جبير، قال: عزائم السُّجود: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [السجدة]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾(٥).

قال الإمام ابن باز: سجدات التِّلاوة كلّها سُنَّة ما فيها حتمية، كلُّها سُنَّة ليست واجبة، وهي خمسة عشر سجدة على الصَّحيح. إذا سجد فهو أفضل وهو السُّنَّة، وإن لم يسجد فلا إثم عليه، وقد قرأ النَّبيُّ ﷺ (سورة النجم) في بعض الأحيان فلم يسجد؛ فدلَّ على أنَّها لا تجب، قال عمر: إنَّ الله لم يوجب السُّجود إلَّا أن نشاء، فالمعنى: أنَّ من سجد فله أجرٌ، ومن لم يسجد فلا حرج عليه(٦).

وعلى هذا التَّرجيح والتَّحقيق فآيات السُّجود هي:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف].

(١) رواه التِّرمذي (٢/ ٤٦٤). وينظر: التبيان في آداب حامل القرآن (١٠٨)، وما بعدها.
(٢) رواه مسلم (١٣٢٧).
(٣) رواه النسائي (٩٦٥)، وصححه الألبانيُّ في (صحيح سنن النَّسائيّ).
(٤) رواه مسلم (١٣٢٩).
(٥) رواه ابن أبي شيبة (٤٣٨٢).
(٦) فتاوى ابن باز (٢٤/ ٤٠٦).

٢- وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل].

٤- وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء].

٥- وقال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم].

٦- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

٧- وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج].

٨- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

٩- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل].

١٠- وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة].

١١- وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص].

١٢- وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصِّلَت].

١٣- وقال تعالىٰ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم].

١٤- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق].

١٥- وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق].

المطلب الثالث: أساليب الأمر بالسجود

المسألة الأولىٰ: الأمر للنبي ﷺ بالسجود:

قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [العلق]، هذه الآية الأخيرة من (سورة العلق) نزلت في أبي جهل؛ فعن أَبِىٰ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّىٰ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَىٰ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّىٰ زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّىٰ لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ -لَا نَدْرِىٰ فِي حَدِيثِ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ-: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣)﴾ يَعْنِىٰ: أَبَا جَهْلٍ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [العلق] - زَادَ عُبَيْدُ الله فِي حَدِيثِهِ - قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ[١].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، فجاء أبو جهل، فَقَالَ: ألم أنْهَك عن هذا؟ فانصرف إِلَيْهِ النَّبيُّ ﷺ، فزبَره[٢]، فَقَالَ أبو جهل: والله، إنَّك لَتعلمُ ما بِهَا نادٍ أكثرُ منِّي، فأنزل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)﴾، قَالَ ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: والله، لو دعا نادِيَه؛ لأخذتْه زَبانِيةُ الله تبارك وتعالىٰ[٣].

وعن قتادة، قال: ذُكِرَ لنا أنَّها نزلت في أبي جهل، قال: لئن رأيتُ محمَّدًا يُصلِّي لأطأنَّ علىٰ عنقه، فأنزل الله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾، قال نبيُّ الله ﷺ حين بلغه الذي قال أبو جهل، قال: لو فعل؛ لاختطفته الزَّبانية[٤].

---

(١) رواه مسلم (٧٢٤٣).

(٢) زَبَره: يزبُره -بالضمِّ- عَن الأمر زَبْرًا: نهاه، وانتهره. (اللسان: مادة ز ب ر، ٤/ ٣١٥).

(٣) رواه الواحديُّ بإسناد صحيح في (أسباب النزول ٢١/ ٤٣)، وأصله في (صحيح البخاري: ٤٩٥٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٤١).

ومعنىٰ الآية:

﴿كَلَّا﴾: ردع لأبي جهل، ورد عليه، وقيل: معناه لن يصل إلىٰ ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه، ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك، ويحتمل: لن ينال ما يتمنىٰ من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة؛ فليس الامر علىٰ ما يظنه.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾: فيما دعاك إليه من المداومة علىٰ العبادة وكثرتها، وترك الصَّلاة لربِّك، ولا تلتفت إلىٰ نهيه وكلامه؛ فإنَّه لا يأمر إلَّا بما فيه خسارة الدَّارين، وقيل معناه: ألَّا لا تطعه، ثمَّ قال: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، وهو كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾[القلم][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْجُدْ﴾ عند أكثر أهل التأويل أراد به: صلِّ لله حيثُ شئتَ ولا تباله، وتوفر علىٰ عبادته -تعالىٰ- فعلًا وإبلاغًا، ولْيَقِلَّ فِكرُك في هذا العدوِّ؛ فإنَّ الله مقويك وناصرك. وقال بعضهم: بل المراد الخضوع. وقال آخرون: بل المراد السَّجود نفسه في الصَّلاة[2]، والمعنىٰ: دُمْ علىٰ صلاتك. وعبَّر عن الصَّلاة بأفضل الأوصاف التي يكون العبد فيها أقرب إلىٰ الله تعالىٰ[3].

والصَّلاة التي كان يصلِّيها النَّبيُّ ﷺ غير الصَّلوات الخمس؛ إذ لم تفرض بعدُ، بل كانت هيئةً غير مضبوطة بكيفية، وفيها سجودٌ لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾، يؤدِّيها في المسجد الحرام أو غيره بمرأىٰ من المشركين، فعَظُم ذلك علىٰ أبي جهل، ونهاه عنها[4].

﴿وَاقْتَرِب﴾: الاقتراب: افتعال من القرب، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنىٰ التكلف والتطلب[5]، اجتهد في التقرب إلىٰ الله جل ثناؤه بالتحبب إليه بطاعته وعبادته، في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه، وقيل: المعنىٰ: إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء؛ فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه في سجوده؛ كما جاء في الحديث عَنْ أَبِىْ هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[6]؛ وذلك لأنَّ السُّجود نهاية العبودية والذِّلَّة لله، ولله غاية العِزَّة التي لا مقدار

---

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ٢٢٦).
(٢) تفسير الرازي ٣٢/ ٢٢٦).
(٣) تفسير البحر المحيط (١٠/ ٥١٢).
(٤) تفسير ابن عاشور (٣٠/ ٣٩١).
(٥) تفسير ابن عاشور (٣٠/ ٤٠٠).
(٦) رواه مسلم (١١١١).

لها، فلمّا بعدت من صفته قربت من جنته، ودنوتَ من جواره في داره، وفي الحديث الصَّحيح: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[١]، وقيل: ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ أنتَ يا أبا جهل -يتوَّعده-[٢]، حتىٰ تبصر ما ينالك من أخذ الزَّبانية إيَّاك؛ فكأنَّه -تعالىٰ- أمره بالسُّجود ليزداد غيظ الكافر، قال تعالىٰ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والسَّبب الموجب لازدياد الغيظ؛ هو: أنَّ الكفر كان يمنعه من القيام، فيكون غيظُه وغضبُه عند مشاهدة السُّجود أتم، ثمَّ قال عند ذلك: ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ منه يا أبا جهل، وضع قدمك عليه؛ فإنَّ الرَّجل ساجدٌ مشغولٌ بنفسه، وهذا تَهَكُم به، واستحقارٌ لشأنه[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ فذلكة للكلام المتقدِّم من ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾، أي: لا تترك صلاتك في المسجد الحرام، ولا تخشَ منه.

وأُطْلِقَتِ الطَّاعة علىٰ الحذر الباعث علىٰ الطَّاعة علىٰ طريق المجاز المرسل، والمعنىٰ: لا تخفه، ولا تحذره؛ فإنَّه لا يضرُّك[٤]؛ فإنَّ أبا جهل لن يقدر علىٰ ضُرِّك؛ فإنَّ الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من النَّاس[٥].

وأكَّد قوله: ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ بجملة: ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ اهتمامًا بالصَّلاة، وعطَف عليه ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ للتَّنويه بما في الصَّلاة من مرضاة الله تعالىٰ، بحيث جعل المُصلِّي مقتربًا من الله تعالىٰ[٦].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ ربطٌ بين السُّجود والاقتراب من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ٢٦﴾ [الإنسان]، وقوله في وصف أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، فقوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾، في معنىٰ يتقرَّبون إليه، يبيِّنُ قولَه: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾، وهذا ممَّا يدل لأوَّل

---

(١) انظر: أحكام القرآن (٨/ ٩٦).
وأمّا حديث أبي هريرة؛ فقد أخرجه مسلم (١١٠٢)، بلفظ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».
(٢) الدُّرّ المنثور (١٥/ ٥٣١).
(٣) تفسير الرَّازيُّ (٣٢/ ٢٢٦). وينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٨).
(٤) تفسير ابن عاشور (٣٠/ ٤٠٠).
(٥) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٥٤١)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٩)، وتفسير السعدي (٩٣٠)، وتفسير البيضاوي (٥/ ٥١٢).
(٦) تفسير ابن عاشور (٣٠/ ٤٠٠).

وهلة: أنَّ الصَّلاة أعظم قربة إلىٰ الله، حيثُ وجّه إليها الرَّسول ﷺ من أوَّل الأمر، كما بيَّن -تعالىٰ- في قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة]، وقال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَىٰ اللهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[١].

وعن مجاهد، قال: أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ، ألا تسمعونه يقول: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾[٢].

ولقد أحسن من قال[٣]:

وَإِذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَوَاضُعًا ... مِنَّا إِلَيكَ فَعِزُّهَا في ذُلِّـهَا

وشرَّف الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ في (سورة العلق) بثلاثة أنواع من التَّشريفات:

أوَّلها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، أي: اقرأ القرآن علىٰ الحق مستعينا باسم ربك.

وثانيها: أنه قهر خصمه ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾.

وثالثها: أنه خصَّه بالقُربة التَّامّة، وهو ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾.

فقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ أمرٌ مطلقٌ[٤]، يحتمل: أن يكون بمعنىٰ السُّجود في الصَّلاة، ويحتمل: أن يكون سجود التِّلاوة في هذه السُّورة[٥].

قال ابن العربيّ: والظَّاهر أنَّه سجود الصَّلاة، لقوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾، لولا ما ثبت في الصَّحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه قال: سجدتُ مع النَّبيِّ ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، وفي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ سجدتين[٦]؛ فكان هذا نصًّا علىٰ أنَّ المراد به سجود التِّلاوة[٧].

---

(١) أضواء البيان (٩/ ٢٩).
والحديث أخرجه البزَّار (١٥٢٤)، وأصله في (صحيح مسلم: ١١١١).

(٢) الدُّرّ المنثور (١٥/ ٥٣١).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٨).

(٤) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (٢٣/ ١٣٩).

(٥) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٢٨).

(٦) رواه مسلم (١٣٢٩)، بلفظ: سَجَدْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، وفي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

(٧) أحكام القرآن (٨/ ٩٦).

ففي قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ أمرٌ للرَّسول، والمراد به هو والمؤمنون؛ وقيل: هو أمرٌ لكلِّ مكلَّف، ومتناول لجميع الأُمَّة[١].

واحتجّ أبو حنيفة علىٰ وجوب السَّجدة بهذا من وجهين:

الأوَّل: أنَّ فعله ﷺ يقتضي الوجوب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الثاني: أنَّ الله -تعالىٰ- ذمَّ مَن يسمعه فلا يسجد، وحصول الذَّمِّ عند التَّرك يدلّ علىٰ الوجوب[٢].

المسألة الثانية: الأمر للمؤمنين خاصة بالسُّجود:

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج].

قول الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يا أيُّها الذين صدقوا الله ورسوله، ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ اخضعوا، وذُلُّوا لربّكم -تعالىٰ- بالطَّاعة[٣].

أو يكون المراد بالرُّكوع والسُّجود: الصَّلاة، فهي قُرَّة العيون، وسلوة القلب المحزون، ولا تكون إلَّا بالركوع والسُّجود، ولا تقبل صلاةٌ إلَّا بهما سوىٰ صلاة الجنازة. وخصَّ الرُّكوع والسُّجود تشريفًا للصَّلاة، ولفضلهما. ولأنّهما أعظم أركانها؛ إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية له -تعالىٰ- لا لغيره، وتخصيصُ الصَّلاة بالذِّكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾= تنبيهٌ علىٰ أنَّ الصَّلاة عماد الدِّين، فأمرت بها مستقلًا، ولم تقتصر علىٰ طلبها في عموم العبادات، ولا شكَّ أنَّ ذلك يدلُّ علىٰ تأكّدها وفرضيتها علىٰ النَّاس جميعًا[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ المراد بالعبادة: ما أمر اللهُ النَّاس أن يتعبَّدُوا به، مثل الصِّيام والحجّ، فَافْرِدُوا الله وحدَه بالعبادة، وامتثلوا أمرَه؛ فرُبُوبيته وإحسانه علىٰ العباد يقتضي منهم أن يُخْلِصوا له العبادة.

---

(١) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٢٧).
(٢) تفسير الرَّازي (٣١/ ١٠٤).
(٣) تفسير البغوي (٥/ ٤٠١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٨).
(٤) أحكام القرآن للسايس (٥١٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ الذي أمركم ربكم بفعله عموما؛ فهذا أمر ندب فيما عدا الواجبات التي صحّ وجوبها من غير هذا الموضع، ففعل الخيرات عامّ للتّكاليف جميعها، يشمل ما يصلح علاقة العبد بالربِّ، وما يصلح علاقات النَّاس بعضهم مع بعض، كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والحضّ علىٰ الإطعام، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والاتِّصاف بسائر مكارم الأخلاق، وسائر وجوه البِرّ، وهذا مجملٌ بيَّنته وبيَّنت مراتبَه أدلةٌ أخرىٰ.

والآية جمعت أنواع التَّكاليف، وأحاطت بفروع الشَّريعة، فلم يفلت منها فرضٌ، ولا ما دون الفرض[1]، وفيها ذكر للعامِّ بعد الخاصِّ لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاصِّ؛ إذ بدأ في قوله تعالىٰ: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ بخاصٍّ، ثمّ بعامٍّ، ثمَّ بأعمَّ؛ فهذه الأوامر مرتبة، بُدِئ فيها بعبادة خاصَّة: وهي الصَّلاة، ثمّ ثنَّي بما هو أعمُّ منها: وهو جميع العبادات، ثمّ أتبع ذلك بما هو أعمُّ من الكلِّ: وهو فعل الخيرات الشَّامل للعبادات وللإحسان في المعاملات، وبعضهم حمل العبادة علىٰ الفرائض، وفعل الخير علىٰ النَّوافل[2].

وفي هذا التَّرتيب إيماءٌ إلىٰ أنَّ الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدَّمٌ علىٰ الاشتغال بإصلاح الأعمال[3].

وعلَّق -تعالىٰ- الفلاح علىٰ هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ والفلاح: هو الفوز بنيل البُغية، ولا شكَّ أنَّ بُغية كلِّ عابد سائر علىٰ نهج الشَّريعة إنَّما هي السَّعادة الدَّائمة في الآخرة، وهناءة العيش في الدُّنيا، فلا طريق للفلاح سوىٰ الإخلاص في عبادة الخالق، والسَّعي في نفع عبيده، فمن وُفِّق لذلك؛ فله القدح المعلىٰ من السَّعادة والنَّجاح والفلاح، والفوز بالجنَّة.

والرَّجاء المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ مستعملٌ في معنىٰ تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحدَّ الموجب للفلاح فيما حدَّد الله تعالىٰ[4]، ولكن علىٰ تقدير صدوره من العباد فيكون المعنىٰ عليه: يا أيها الذين آمنوا صلُّوا، وأدُّوا لله كلَّ ما تعبَّدكم به،

---

(١) أحكام القرآن للسَّايس (٥١٩).
(٢) ينظر: البحر المحيط (٧/ ٥٣٩)، وأحكام القرآن للسايس (٥١٩).
(٣) تفسير ابن عاشور (١٧/ ٢٤٩).
(٤) المصدر السّابق نفسه.

وافعلوا كلَّ ما كلَّفكم ممَّا فيه الخير لكم ولأُمَّتكم حالة كونكم راجين الفلاح، ومتوقعين الفوز ودرك الرغائب. فالله سبحانه يرشد المؤمنين إلىٰ أنَّه ليس من شأن العبد الذَّليل الذي يشعر قلبه الخشية من الله والخوف من جبروته= أن يقطع بنتيجة في عمل من الأعمال التي كُلِّفها، بل ينبغي أن تكون حاله بعد أن يُحسن عملَه حالة الرَّجاء، وتوقّع ما يؤمِّل من نتيجة صالحة؛ إذ إنَّ العواقب مجهولة، وقد يكون مُقصِّرا بعض التَّقصير في أعماله، فلم يأتِ بها علىٰ الوجه الذي يحبُّه الله، ويرضاه(١).

وهذه الأوامر خاصة بالمؤمنين، كما أنّ الخطاب متوجه إليهم وحدهم ويؤيَّد هذا ما يلي:

- جاء الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أربع مرَّات، من فاتحة (سورة الحجِّ) عامًّا وشاغلًا لمعظمها، ثمّ لمَّا تمَّ استيفاءُ ما سيق من الحُجج والقوارع والنِّداء علىٰ مساوي أعمال المشركين= ختمت السُّورة بالإقبال علىٰ خطاب المؤمنين خطابًا خاصًّا بما يصلح أعمالهم وينوِّه بشأنهم، فقال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾(٢).
- هو الذي يناسبه ما ورد في الآية التي بعدها، وهي: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]؛ ففيها اجتباء المخاطبين، وتسميتهم بالمسلمين، وإعلاء شأنهم بقبول شهادتهم علىٰ الأمم يوم القيامة.
- لمَّا أعرض الكفَّار عن قبول دين الله، ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، وأبوا من قبل أن يمتثلوا لهذه الأوامر= أعرض الله عنهم، وصرف خطابه وأوامره إلىٰ أهل طاعته الذين يعرفون حقَّه، ويمتثلون أحكامه. أمَّا أولئك الكفَّار؛ فإنّهم لا ينفع فيها إرشاد، ولا يُرجىٰ منهم قبولٌ ولا امتثالٌ. فهم جديرون بالتَّرك والإهدار، وهذا المعنىٰ أحسن وأوجه، وهو سائر حتىٰ مع القول بتكليف الكفَّار بالفروع(٣). وقيل: إنَّ هذه الأوامر متوجِّهة إلىٰ النَّاس جميعًا؛ إذ إنَّ الكفَّار مخاطبون بفروع الشَّريعة، غير أنَّ الخطاب فيها خُصّ به المؤمنون لمزيد الاعتناء بهم وتشريفهم، ولأنّهم هم الذين ينتفعون بهذا التكليف(٤).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٦/ ٦٣٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٩٨، وتفسير السعدي (٥٤٦.

(٢) تفسير ابن عاشور (١٧/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: أحكام القرآن للسايس (٥١٩).

(٤) ينظر: أحكام القرآن للسايس (٥١٩).

المسألة الثَّالثة: خطاب التَّحضيض للعموم علىٰ السُّجود:

ذكر الله -عزَّ وجلَّ- إخبارًا عن الهدهد أنَّه وجد قوم سبأ يسجدون للشَّمس من دون الله، وذلك أنّهم كانوا يعبدون الشَّمس، وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالَهم؛ فكان سببًا في إغوائهم وصدِّهم عن طريق الحقِّ الذي هو دين الإسلام، ولا يهتدون إلىٰ الصَّواب[١]، ثمّ قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل].

اختلف القُرَّاء رحمهم الله في قراءة قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ فقرأ الكِسائيُّ: ﴿أَلَا﴾، بالتَّخفيف؛ للتَّنبيه، و﴿يَا﴾ حرف النِّداء ومناداه محذوفٌ، ووقف علىٰ ﴿أَلَا يَا﴾ وابتدأ بـ ﴿اسْجُدُوا﴾، وهو وقفُ اختيارٍ، ويكون المعنىٰ: ألا يا هؤلاء، اسجدوا. علىٰ أنَّه أمرٌ من عند الله مستأنفٌ، وأضمر هؤلاء اكتفاءً بدلالة ﴿يَا﴾ عليها.

والخطاب إمَّا للنَّاس، أو لقوم سليمان، أو لقوم بلقيس وفي الكلام التفات[٢].

وهذه القراءة تعطي أنَّ الآية من خطاب الله -عزَّ وجلَّ- لأُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، ويؤيِّده قراءة أُبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿أَلَا تَسْجُدُونَ﴾ علىٰ العرض وإسناد الفعل إلىٰ ضمير المخاطبين، وقراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ﴾ بألا الاستفتاحية وهل الاستفهامية، وإسناد الفعل إلىٰ ضمير المخاطبين[٣].

وقرأ أبو عمرو ونافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بتشديد ﴿أَلَّا﴾ أراد فصدَّهم عن السَّبيل لِئلا يسجدوا لله، فحذف الجار مع أنَّ، ويجوز أن تكون ﴿لَا﴾ صلة، ويكون المعنىٰ: فهم لا يهتدون إلَّا أن يسجدوا.

والصَّواب من القول في ذلك: أنّهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، قد قرأ بكلِّ واحدة منهما علماءُ من القُرَّاء مع صحَّة معنييهما[٤].

(١) تفسير الخازن (٣/ ٣٤٤).
(٢) تفسير الألوسي (١٠/ ١٨٦).
(٣) تفسير الألوسي (١٠/ ١٨٧).
(٤) ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٤٢٧)، وتفسير الطبري (١٨/ ٤١)، وتفسير ابن عطية (٥/ ١٦١)، وتفسير البغوي (٦/ ١٥٧)، وتفسير الرَّازي (٢٤/ ٥٥٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥)، والبحر المحيط (٨/ ٢٢٩)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٨٧)، وتفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، قال تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢)﴾ [النجم].

وسجدة التِّلاوة واجبةٌ في قراءة التَّخفيف والتَّشديد في حرف ﴿أَلَّا﴾؛ لأنَّ مواضع السَّجدة إمَّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتىٰ بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدىٰ القراءتين أمرٌ بالسُّجود، والأخرىٰ ذمٌّ للتَّارك؛ ولأنَّ مآل المعنىٰ علىٰ القراءتين واحدٌ، وهو إنكارُ سجودهم لغير الله؛ فالله تعالىٰ هو الحقيق بالسُّجود، وصرَّح الفقهاء بوجوب السُّجود هنا(١)، وقالوا: إنَّها من عزائم السُّجود، فيستحبُّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها(٢).

ويعني بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ الخَبء: مصدر خبأ الشَّيء: إذا أخفاه، وأطلق هنا علىٰ اسم المفعول، أي: المخبوء علىٰ طريقة المبالغة في الخفاء(٣)، وليتناول جميع الأمور من أنواع الأرزاق والأموال وغيرها، فيخرج المخبوء من السَّموات والأرض، وهو يعلم الخفي الخبيء في أقطار السَّموات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات وبذور النَّباتات وخفايا الصُّدور -لأنَّ العربَ تضع (من) مكان (في)، و(في) مكان (من) في الاستخراج- ويعلم كلّ سرٍّ وخفيةٍ في السَّموات والأرض، ويدلُّ عليه: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(٤)، وكقوله في هذه السُّورة الكريمة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس: ٦١](٥).

ومناسبة وقوع الصِّفة بالموصول في قوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ لحالة خبر الهدهد ظاهرة؛ لأنَّ فيها اطِّلاعًا علىٰ أمر خفي(٦).

ووصف الهدهد ربَّه -تعالىٰ- بهذا الوصف الذي هو قوله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾؛ لأنَّ كُلَّ مختصٍّ بوصف من علم أو صناعة، يظهر عليه مخايلُ ذلك الوصف في رُوائه ومنطقه وشمائله(٧).

---

(١) تفسير الألوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).
(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٧٥، ٨٠)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤).
(٣) تفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥).
(٥) أضواء البيان (٦/ ١٠٩).
(٦) تفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠).
(٧) البحر المحيط (٨/ ٢٣١).

ولمَّا كان الهدهد داعيًا إلىٰ الخير، وعبادة الله وحده والسُّجود له، نُهِيَ عن قتله، كما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «نَهَىٰ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةُ وَالنَّحْلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرَدُ»[1].

قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يخرج خَبء السَّموات بإنزال المطر، ويخرج خَبء الأرض بإنبات النَّباتات، وما جعل الله فيهما من الأرزاق، ويخرج خَبء الأرض عند النَّفخ في الصُّور، وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم. والأوْلَىٰ التَّعميم كما روىٰ ذلك جماعةٌ عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[2].

واختيار هذا الوصف؛ لما أنَّه أوفق بالقصَّة، حيثُ تضمَّنت ما هو أشبه شيء بإخراج السِّرِّ والغَيب حيثُ أظهر أمر بلقيسَ، وما يتعلق به[3].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد]، وأشير بعطف قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ علىٰ ﴿يُخْرِجُ﴾= إلىٰ أنَّه -تعالىٰ- يُخْرِج ما في العالم الإنساني من الخفايا، كما يُخرج ما في العالم الكبير من الخبايا؛ إذ المرادُ: أنَّه -تعالىٰ- يُظْهِر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها. وذكر ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ لتوسيع دائرة العلم، أو للتَّنبيه علىٰ تساويهما بالنِّسبة إلىٰ العلم الإلهي[4].

وقرأ الجَحْدريُّ وعيسىٰ بن عمر وحفصٌ والكِسائيُّ: ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتَّاء علىٰ الخطاب؛ لأنَّ أوَّل الآية خطابٌ علىٰ قراءة الكِسائي بتخفيف ﴿أَلَا﴾، وذكر أنَّ ذلك في قراءة أُبَيٍّ: ﴿ألا تسجدون لله الذي يعلم سركم وما تعلنون﴾[5].

---

(١) رواه أحمد (٣٠٦٧)، وأبو داود (٥٢٦٩)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، وقال ابن كثير: «إسناده صحيح». وينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٧).

(٢) تفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦).

(٣) المصدر السّابق نفسه.

(٤) المصدر السّابق نفسه.

(٥) ينظر: إبراز المعاني (٢/ ٣٣١)، وإتحاف فضلاء البشر (١/ ٤٢٧)، وتفسير الطبري (١٨/ ٤١)، وتفسير ابن عطية (٥/ ١٦٢)، وتفسير البغوي (٦/ ١٥٧)، وتفسير الرَّازي (٢٤/ ٥٥٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥)، والبحر المحيط (٨/ ٢٢٩)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٨٧)، وتفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).

وقراءة العامَّة في: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بياء، وهذه القراءة تُعطي أنَّ الآية من كلام الهدهد، وأنَّ الله -تعالىٰ- خصَّه من المعرفة بتوحيده ووجوب السَّجود له، وإنكار سجودهم للشَّمس، وإضافته للشَّيطان، وتزيينه لهم= ما خصَّ به غيره من الطيور وسائر الحيوان من المعارف اللَّطيفة التي لا تكاد العقول الرَّاجحة تهتدي لها[١].

وفي الآية دلالة علىٰ وصف الله تعالىٰ بالقدرة والعلم؛ أمَّا القدرة؛ فقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وأمَّا العلم؛ فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[٢].

والمقصود من هذا الكلام الرد علىٰ من يعبد الشمس؛ فالإله يجب أن يكون قادرا علىٰ إخراج الخبء وعالما بالخفيات، والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلها وإذا لم تكن إلها لم يجز السجود لها، أما أنه سبحانه وتعالىٰ يجب أن يكون قادرا عالما علىٰ الوجه المذكور، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قدرته وعلمه تعالىٰ ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه، وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة علىٰ إخراج الخبء عالمة بالخفيات، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة علىٰ جلب المنافع ودفع المضار.[٣]

وقدم ذكر: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ لمناسبته لما قبله من الخَبء، وقدَّم وصفه تعالىٰ بإخراج الخَبء من السَّموات؛ لأنَّه أشد ملاءمةً للمقام[٤].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل: ٢٦] لا معبودَ سواه تصلح له العبادة والإنابة والذُّلُّ والحبُّ؛ لأنَّه المألوه لِما له من الصِّفات الكاملة، والنِّعم الموجبة لذلك، فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالطَّاعة، ولا تشركوا به شيئًا.

---

(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٤٢٧)، وتفسير الطبري (١٨/ ٤١)، وتفسير البغوي (٦/ ١٥٧)، وتفسير الرَّازي (٢٤/ ٥٥٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥)، والبحر المحيط (٨/ ٢٢٩)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٨٧)، وتفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٤/ ٥٥٢)، وتفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠).

(٣) تفسير الرازي (٢٤/ ٥٥٢)، وينظر: تفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤).

(٤) تفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦).

ومجيء جملة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٢٦﴾ عقب ذلك استئنافٌ بمنزلة النَّتيجة للصِّفات التي أُجريت علىٰ اسم الجلالة، وهو المقصود من هذا التَّذييل، أي: ليس لغير الله شبهة إلهية[١].

قرأ ابن محيصن وجماعةٌ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾: ﴿الْعَظِيمُ﴾ رفعًا نعتًا لله، والباقون: ﴿ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ بالخفض نعتًا للعرش[٢]، الذي هو سقف المخلوقات، ووَسِع الأرضَ والسَّموات، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، فكلُّ عرش وإن عَظُم فدونَه، لا يشبهه عرشُ ملكة سبأ ولا غيره، فربُّ هذا العرش هو الملك العظيم ذي السُّلطان الكبير الشَّأن، هو الذي يُذَلُّ له ويُخْضَع، ويُسْجَد له ويُرْكَع[٣]، وهو المستحقُّ للعبادة والسُّجود، لا غيره[٤].

وتعريف ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ للدَّلالة علىٰ معنىٰ الكمال، ووصفه بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ للدَّلالة علىٰ كمال العظمة[٥].

وذَكَرَ (العرش) ههنا؛ لأنَّه أخبر أنَّه كان لها عرشٌ عظيمٌ، فعرشُها صغيرٌ حقيرٌ في جنب عرش الله تعالىٰ[٦].

فإن قلتَ: قد وصف عرشَ بلقيسَ بالعِظَم وعرش الله بالعِظَم، فما الفرقُ بينهما؟

قلتُ: وَصَف عرشَ بلقيسَ بالعِظَم بالنسبة إليها وإلىٰ أمثالها من ملوك الدُّنيا، وأمَّا عرش الله -تعالىٰ-؛ فهو بالنِّسبة إلىٰ جميع المخلوقات من السَّموات والأرض؛ فحصل الفرق بينهما[٧].

ودلَّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ٢٦﴾ أنَّه -سبحانه- لمَّا بيَّن افتقارَ السَّموات والأرض وما بينهما إلىٰ المدبِّر= ذكر بعد ذلك أنَّ ما هو أعظم الأجسام

---

(١) تفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠)، وينظر: تفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤١)، وتفسير البغوي (٦/ ١٥٧)، وتفسير الرَّازي (٢٤/ ٥٥٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٨٥)، والبحر المحيط (٨/ ٢٢٩)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٨٧)، وتفسير الآلوسي (١٠/ ١٨٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٣٤٤)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).
(٣) تفسير السعدي (٦٠٤).
(٤) تفسير البغوي (٦/ ١٥٧).
(٥) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٩/ ٢٥٠).
(٦) تفسير البغوي (٦/ ١٥٧)، وتفسير السّمعاني (٤/ ٩١).
(٧) ينظر: تفسير الخازن (٣/ ٣٤٤).

فهي مخلوقة ومربوبة، وذلك يدلُّ علىٰ أنَّه -سبحانه- هو المُنتهىٰ في القُدرة والرَّبوبية إلىٰ ما لا يزيد عليه[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصِّلت].

ينبِّه الله -تعالىٰ- خلقَه علىٰ قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه علىٰ ما يشاء قادر، ومن حججه تعالىٰ علىٰ خلقه ودلالته علىٰ وحدانيته، وعظيم سلطانه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فالله تعالىٰ خلق اللَّيل بظلامه، والنَّهار بضيائه، وهما متعاقبان، هذا بمنفعة ظلمه، وسكون الخلق فيه، وهذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، والشَّمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياؤه، وتقدير منازله في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشَّمس مقاديرُ اللَّيل والنَّهار، والجمع والشُّهور والأعوام، ويتبيَّن بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات، فلا تستقيم معايش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلَّا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصىٰ عدده.

وقدَّم ذكر اللَّيل، قيل: تنبيهًا علىٰ تقدمه، مع كون الظُّلمة عدمًا والنُّور وجودًا، وناسب ذكر الشَّمس بعد النَّهار؛ لأنّها سببٌ لتنويره ويُظْهِرُ العالمَ فيه، ولأنّها أبلغ في التَّنوير من القمر، ولأنَّ القمر مستفادٌ نوره من نور الشَّمس.

وقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: فإنّهما مُدبَّران مُسخَّران مخلوقان؛ فنهىٰ عن السُّجود لهما؛ لأنّهما وإن كانا خلقين عظيمين؛ فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما، فيستحقان بها العبادة مع الله؛ لأنَّ خالقهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما، أو طمس نورهما.

وقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ، وأنَّث الضَّمير علىٰ الكناية التي ترجع إلىٰ الشَّمس والقمر واللَّيل والنهار، فجمع بالهاء والنُّون؛ لأنَّ المراد من الكلام: واسجدوا لله الذي خلق اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر، فذكر أربعةً متعاطفةً؛ فتنزَّلت منزلة الجمع المعبَّر عنها بلفظ واحد، وأنَّث كنايتهن، وإن كان من شأن العرب إذا

---

(١) تفسير الرَّازيِّ (٢٤/ ٥٥٢).

جمعوا الذَّكر إلىٰ الأنثىٰ أن يخرجوا كنايتهما بلفظ كناية المذكَّر؛ فيقولوا: أخواك وأختاك كلموني، ولا يقولوا: كلمنني؛ لأنَّ من شأنهم أن يؤنِّثوا أخبارَ الذُّكور من غير بني آدم في الجمع، فيقولوا: رأيتُ مع عمرٍو أثوابًا فأخذتُهنَّ منه، وأعجبني خواتيمُ لزيدٍ قبضتهنَّ منه، وقيل: يرجع الضَّمير للشَّمس والقمر خاصَّة؛ لأنَّ الاثنين جمعٌ، وجمع ما لا يعقل يؤنَّث؛ فلذا ساغ أن يعود الضَّمير مجموعًا، وقيل: الضَّمير عائدٌ علىٰ معنىٰ الآيات، والمعنىٰ: اعبدوه وحده، لأنَّه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كَبُر جِرْمُه، وكثرت مصالحُه؛ فإنَّ ذلك ليس منه، وإنَّما هو من خالقه تبارك وتعالىٰ.

والنَّهي في قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ إمَّا نهي إقلاع بالنِّسبة للذين يسجدون للشَّمس والقمر، أو نهي تحذير لمن لم يسجد لهما أن لا يتبعوا من يعبدونهما.

ووقوع قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ بعد النّهي عن السُّجود للشَّمس والقمر يفيد مفاد الحصر؛ لأنَّ النَّهي بمنزلة النَّفي، ووقوع الإثبات بعده بمنزلة مقابلة النفي بالإيجاب؛ فإنّه بمنزلة النفي والاستثناء في إفادة الحصر؛ فكأنَّه قيل: لا تسجدوا إلَّا لله، أي: دون الشَّمس والقمر.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تعبدون الله، وتذلُّون له بالطَّاعة؛ وإنَّ من طاعته أن تُخْلِصوا له العبادة، ولا تُشْرِكوا في طاعتكم إيَّاه وعبادتكم شيئًا سواه، فإنَّ العبادة لا تصلح لغيره، ولا تنبغي لشيءٍ سواه؛ فخُصُّوه بالعبادة وإخلاص الدِّين له.

ووجه تخصيص ذكر السُّجود بالنَّهيِّ عنه؛ لأنَّه كان ناسٌ يسجدون للشَّمس والقمر، كالصَّابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنّهم يقصدون بالسُّجود لهما السُّجود لله، فنُهُوا عن ذلك، وقيل: وجه تخصيصه أنَّه أقصىٰ مراتب العبادة.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي: تعاظموا علىٰ اجتناب ما نهىٰ من السُّجود لهذين المُحْدِثين المَربوبِين، وعن إفراد العبادة له -تعالىٰ- وأبوا إلَّا أن يشركوا معه غيره؛ فإنّهم لن يضروا الله شيئًا، والله غنيٌّ عنهم.

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلُ جواب الشَّرط، والمعنىٰ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ فإنَّ له -تعالىٰ- عبادًا مُكْرَمين أفضلَ منهم، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والعندية في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عندية تشريفٍ وكرامةٍ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف]، وهؤلاء الملائكة المقرَّبون عند

الله بالمكانة والرُّتبة الشَّريفة، ينزِّهونه عمَّا لا يليق بكبريائه، عامرون للعوالم العُليا التي جعلها الله مُشَرَّفةً بأنَّها لا يقع فيها إلَّا الفضيلة، فكانت بذلك أشدَّ اختصاصًا به -تعالىٰ- من أماكن غيرها قصدًا لتشريفها.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾.

السَّآمة: الضَّجر والملل من الإعياء، وذكر اللَّيل والنَّهار هنا لقصد استيعاب الزَّمان، أي: يسبِّحون له الزَّمان كلّه، فهم لا يملُّون من عبادته لقوتهم، وشدَّة الدَّاعي القوي منهم، وهم خيرٌ منكم، مع أنَّه -تعالىٰ- غنيٌ عن عبادتكم وعبادتهم، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام].

والمراد بالتَّسبيح: كلّ ما يدلّ علىٰ تنزيه الله -تعالىٰ- عمَّا لا يليق به؛ وذلك بالأقوال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورىٰ: ٥]، أو بالأعمال: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل]؛ وذلك ما يقتضيه قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ من كون ذلك التَّسبيح قولًا وعملًا، وليس مجرد اعتقاد(١).

وهذه الآية آيةُ سجدةٍ بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السُّجود منها علىٰ قولين:

الأوَّل: ذهب المالكية رحمهم الله إلىٰ أنَّ موضعه: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾؛ لأنَّه متَّصلٌ بالأمر، وكان عليٌّ وابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وغيرهما يسجدون عند قوله: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾.

الثاني: ذهب الحنفية والشَّافعية والحنابلة إلىٰ أنَّ موضعه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾؛ لأنَّه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال، وكان ابن عمر وابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا وغيرهما يسجدون عند قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾(٢).

قال ابن العربي: والأمر قريب(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٤٣٦)، والبحر المحيط (٩/ ٣٠٧)، وتفسير ابن كثير (٧/ ١٨٢)، وتفسير الآلوسي (١٢/ ٣٧٦)، وتفسير السعدي (٧٥٠)، وتفسير ابن عاشور (٢٥/ ٦٤).

(٢) ينظر: البحر الرائق (٥/ ٤٧)، والتاج والإكليل (٢/ ٧٨)، والشرح الكبير للرافعي (٤/ ١٨٨)، والمغني (٣/ ٨٩)، وتفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٣)، وتفسير الخازن (٤/ ٩٠)، وتفسير الشوكاني (٦/ ٣٥٨).

(٣) أحكام القرآن (٧/ ٧٩).

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم].

لما وبّخ -سبحانه- المشركين علىٰ الاستهزاء بالقرآن، والضَّحك منه، والسُّخرية به، وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره= فرّع عليه أَمْرَهم بالسُّجود له تعالىٰ؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخ من شأنه أن يُعَمّق في قلوبهم، فيكفَّهم عمَّا هم فيه من البطر والاستخفاف بالدَّاعي إلىٰ الله، فقال آمرًا لعباده بالسُّجود له والعبادة والتوحيد والإخلاص: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، والفاء جوابُ شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر من الكفَّار كذلك؛ ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، وفي المَعْنيِّ بالخطاب أقوالٌ:

الأوَّل: أنَّ الخطاب موجَّهٌ إلىٰ المؤمنين؛ فيكون التفاتًا؛ كأنَّه قال: أيُّها المؤمنون اسجدوا شكرًا علىٰ الهداية، واشتغلوا بالعبادة.

الثَّاني: أنَّ الخطاب موجَّهٌ إلىٰ المشركين، وهذا مقتضىٰ تناسق الضَّمائر.

الثَّالث: أنَّ الخطاب موجَّهٌ إلىٰ النَّاس عمومًا مؤمنهم وكافرهم، وهذا هو الرَّاجح، والله أعلم(١).

ثمَّ قال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ۩﴾ وهذا من عطف العامِّ علىٰ الخاصِّ، فأمر بالعبادة عمومًا، الشَّاملة لجميع ما يحبُّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظَّاهرة والباطنة، والمعنىٰ: أخلِصُوا له العبادة، واخضعوا له، ووحِّدوا، ولا تجعلوا له شريكًا في عبادتكم إيَّاه، ولا تعبدوا غير الله؛ لأنَّها ليست بعبادة، ولم يقل: اعبدوا الله، إمَّا لكونه معلومًا، وإمَّا لأنَّ العبادة في الحقيقة لا تكون إلَّا لله، فقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ۩﴾ أي: ائتوا بالمأمور.

والأمر بالسُّجود لله خصوصًا يدلّ علىٰ فضله، وأنَّه سِرُّ العبادة ولبُّها؛ فإنَّ لبَّها الخشوع لله، والخضوع له، والسُّجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد؛ فإنَّه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه علىٰ الأرض المَهينة موضع وطء الأقدام(٢).

واختلف أهل العلم رحمهم الله في المراد بالسُّجود علىٰ قولين:

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٢٨٧)، وتفسير الخازن (٤/ ٢١٦)، وتفسير ابن عاشور (٢٧/ ١٥٨)، وأضواء البيان (٦/ ١٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٠٢)، وتفسير الرَّازي (٢٩/ ٢٨٧)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٤٦٩)، وتفسير السعدي (٨٢٢).

القول الأوَّل: المراد به سجود تلاوة القرآن، وهو قول كثير من أهل العلم، منهم: عمر بن الخطاب وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبه قال الأئمة: أبو حنيفة والشَّافعيُّ وأحمدُ رحمهم الله، ووردت به أحاديثُ صحاحٌ؛ فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِـ(النَّجْمِ) وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ(١)، وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلاَّ رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ(٢).

القول الثاني: المراد سجود الفرض في الصَّلاة، وهو قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وكان لا يراها من عزائم السُّجود، وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا(٣)، وبه قال مالك.

والأوَّل أصحُّ(٤).

المطلب الرابع: حال المشركين مع الأمر بالسجود

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

قال تعالىٰ منكرًا علىٰ المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾، أي: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: اجعلوا سجودكم لله خالصًا دون الآلهة والأوثان، فهو وحده الذي أنعم عليكم بسائر النِّعم، ودفع عنكم جميع النِّقم، والقائل ﴿اسْجُدُوا﴾: الله علىٰ لسان رسوله ﷺ، أو الرَّسول ﷺ، أو المؤمنون.

﴿قَالُوا﴾ علىٰ جهة الإنكار والتَّعجب والجحود والكفر. ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ (ما) استفهامية، والاستفهام مستعمل في الاستغراب، يعنون تجاهلَ هذا الاسم، ولذلك؛ استفهموا عنه بما دون

---

(١) رواه البخاريُّ (١٠٧١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٦٣) واللفظ له، ومسلم (١٣٢٥).

(٣) رواه البخاريَّ (١٠٧٣).

(٤) ينظر: العناية شرح الهداية (٢/ ٣٣٢)، وبدائع الصنائع (٢/ ٢٥١)، والمغني (٣/ ٨٦)، وزاد المسير (٥/ ٤٤٨)، وتفسير القرطبي (١٧/ ١٢٤)، والبحر المحيط (١٠/ ٢٩)، وتفسير الخازن (٤/ ٢١٦)، وتفسير الآلوسي (١٤/ ٧١)، وتفسير الشوكاني (٧/ ٨٤)، وتفسير ابن عاشور (٢٧/ ١٥٨).

(من) باعتبار السُّؤال عن معنىٰ هذا الاسم، فبزعمهم الفاسد أنَّهم لا يعرفون الرَّحمن، وإنما يعرفون رحمان اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب. وكانوا ينكرون أن يُسَمَّىٰ الله باسمه الرَّحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: هَاتِ، اُكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ؛ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللهمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ[1].

واظهارهم التَّجاهل بهذه الصِّفة التي لله مغالطةٌ منهم، ووقاحة. وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف، ولا بكونه جاريًا علىٰ مقاييس لغتهم، ولا أنَّه إذا وُصِف الله به فهو ربٌّ واحدٌ، وأنَّ التُّعدّد في الأسماء؛ فكانوا يقولون: انظروا إلىٰ هذا الصَّابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن، وفي ذلك نزل ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء]، وكما في قول فرعون لموسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء]، علىٰ سبيل المناكرة وهو عالم بربِّ العالمين، قال موسىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء].

فكذلك كفَّار قريش استفهموا عن (الرَّحْمن) استفهامَ مَن يجهله وهم عالمون به؛ فالخبر هنا مستعملٌ كنايةً في التَّعجيب من عنادهم وبهتانهم، وليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك؛ لأنَّه أمرٌ معلومٌ من شأنهم.

واختيار اسم (الرَّحْمَنِ) من بين أسمائه تعالىٰ؛ لأنَّ كفرهم بهذا الاسم أشدّ؛ لأنَّهم أنكروا أن يكون الله رحمانًا، ولأنَّ لهذه الصِّفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرَّسول ﷺ وتأييده بالقرآن؛ لأنَّ القرآن هدًىٰ ورحمةً للناس.

وأشارت الآية الكريمة إلىٰ كفرين من كفرهم: عدم الطَّاعة لأمر الله -تعالىٰ- بالسجود له تعالىٰ، وجحد اسم الرَّحمن.

قوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ الاستفهام للإنكار والامتناع، علىٰ أنَّ (مَا) نكرة موصوفة، أو لا نسجد للذي تأمرنا بالسُّجود له إن كانت (مَا) موصولة، وحذف العائد من الصِّفة أو الصِّلة

---

[1] () رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلح، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٣/ ٢٥٢، برقمي: (٢٧٣١) و (٢٧٣٢).

مع ما اتَّصل هو به؛ لدلالة ما سبق عليه، ومقصدهم من ذلك إباء السُّجود لله؛ لأنَّ السُّجود الذي أُمِرُوا به سجودٌ لله بنيَّة انفراد الله دون غيره، وهم لا يجيبون إلىٰ ذلك، كما قال: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [القلم: ٤٣]، أي: فيأبون، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨﴾ [المرسلات]، ويدل علىٰ ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾، فالنُّفور من السُّجود سابقٌ قبل سماع اسم (الرَّحمن).

وقرأ الجمهور: ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ بتاء الخطاب، وقرأه حمزة والكِسائيُّ رحمهما الله: ﴿يَأۡمُرُنَا﴾ بياء الغَيبة، علىٰ أنَّ قولهم ذلك يقولونه بينهم، ولا يشافهون به النَّبيَّ ﷺ(١).

وقوله: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾.

الضَّمير المستتر في ﴿زَادَهُمۡ﴾ عائدٌ إلىٰ القول المأخوذ من ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، يقول: وزاد هؤلاء المشركين قولُ القائل لهم: ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ من إخلاص السُّجود لله، وإفراد الله بالعبادة= بُعدًا ممَّا دُعُوا إليه من ذلك، فرارًا عن الدِّين والإيمان، وهربًا من الحقِّ إلىٰ الباطل وزيادة كفر وشقاء، فزادَهُمْ، أي: هذا القول وهو الأمر بالسُّجود للرَّحمن ضلالًا يختصُّ به مع ضلالهم السَّابق، وقال مقاتلٌ: زادهم ذكرُ الرَّحمن تباعدًا من الإيمان، وقيل: فزادهم سجود المؤمنين نفورًا، والأوَّل أولىٰ.

وكان حقُّ هذا القول أن يكون باعثًا علىٰ فِعْلَي السُّجود والقبول؛ فلذا امتثله المؤمنون؛ لأنَّهم يعبدون الله الذي هو الرَّحمن الرَّحيم، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له، قال الضَّحاك: فسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وعثمانُ بنُ مظعونٍ وعمرُو بن عَنبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولمَّا رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين.

وكان سفيان الثَّوريُّ يقول في هذه الآية: إلهي، زادني لك خضوعًا ما زاد عِداك نُفُورًا(٢).

---

(١) اتحاف فضلاء البشر (١/ ٤١٨)، وتفسير الطبري (١٧/ ٤٨١)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٤٧٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٦٤)، والبحر المحيط (٨/ ١٢٢)، وتفسير ابن عاشور (١٩/ ٨٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٨١)، وتفسير البغوي (٦/ ٩٢)، وتفسير الرازي (٢٤/ ٤٧٩)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٦٤)، والبحر المحيط (٨/ ١٢٢)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٢٠)، وتفسير الآلوسي (١٠/ ٣٩)، وتفسير السّعدي (٥٨٥)، وتفسير الشوكاني (٥/ ٢٨٨)، وتفسير ابن عاشور (١٢/ ١٨٤، ١٩/ ٨٢)، وأضواء البيان (٦/ ٧٠).

وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق، ووجه السُّجود هنا إظهار مخالفة المشركين؛ إذ أبَوا السُّجود للرَّحمن، فلمَّا حكي إباءهم من السَّجود للرَّحمن في معرض التَّعجيب من شأنهم عزَّز ذلك بالعمل بخلافهم، فسجد النَّبيُّ ﷺ هنا مخالفًا لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم، وسَنَّ الرَّسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ السُّجود في هذا الموضع، والله أعلم[1].

قال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾ [الانشقاق].

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ يعني: كفَّار مكة، وتركيب ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ يشمل علىٰ ﴿مَا﴾ الاستفهامية مخبرٌ عنها بالجارِّ والمجرور، والجملة بعد ﴿لَهُمْ﴾ حال من ﴿مَا﴾ الاستفهامية.

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أيّ شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضَّحت لهم الآيات، وقامت الدَّلالات، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة؛ فعند سماعهم القرآن لا بدَّ وأن يعلموا كونه معجزًا، وصحَّة نبوَّة النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ووجوب طاعته في الأوامر والنَّواهي؛ فلا جرم استبعد الله منهم عند سماع القرآن تركَ السُّجود والطَّاعة، وهذا استفهامُ إنكارٍ، وقيل: تعجب، أي: اِعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

وقوله: ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ عطفٌ علىٰ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ظرفٌ قُدِّم علىٰ عامله للاهتمام به، وتنويهِ شأن القرآن.

وقراءة القرآن عليهم قراءته قراءة تبليغ ودعوة، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يعرض عليهم القرآن أفرادًا وجماعات، فقد قرأ النَّبيُّ ﷺ القرآن علىٰ عتبة بن ربيعة[2]، وقال له عبد الله بن أبي بن سلول: أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلاَ تُؤْذِينَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا[3].

والمعنىٰ: وإذا قرأتَ عليهم آيات الرَّحمن وكلامه لا يخضعون ولا يستكينون؛ لمقابلته ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾ [الانشقاق]، ولأنَّه أضاف السُّجود إلىٰ جميع القرآن، والسُّجود يختصُّ بمواضع منه.

وقيل: أراد به سجود التِّلاوة، أي: لا يسجدون إعظامًا وإكرامًا واحترامًا؟

---

(١) تفسير ابن عاشور (١٩/ ٨٢).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٧٩).
(٣) رواه البخاريُّ (٤٥٦٦).

وهذا هو الرَّاجح -والله أعلم-؛ لسجود النَّبيِّ ﷺ عند قرأته لهذه السُّورة(١)، ولما في الآية الكريمة من ذمِّ الله -تعالىٰ- لمن يسمع القرآن الكريم ولا يسجد، وهذا حال الكفَّار مع القرآن الكريم(٢).

المطلب الخامس: حكم سجود التلاوة

سجود التلاوة سنة مؤكدة وليس بواجب وبهذا قال جمهور العلماء وممن قال به: عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي وابن عباس وابن عمر وعمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والأئمة مالك والاوزاعي والليث والشافعي وأحمد واسحاق وابو ثور وداود رحمهم الله وغيرهم محتجين بالاحاديث الصحيحة منها حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا(٣).(٤)

وقال الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد في رواية عنه، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: سجود التِّلاوة واجب علىٰ القارئ والمستمع، واحتجوا بقول الله تعالي: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾، ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم]، وبالأحاديث الصَّحيحة أنَّ النَّبيَّ ﷺ سجد للتِّلاوة وقياسًا علي سجود الصَّلاة(٥).

والرَّاجح -والله أعلم- أنَّ سجود التِّلاوة سُنَّة مؤكَّدة للقارئ والمستمع، والدَّليل علىٰ ذلك حديثُ زيد بن ثابت المتقدِّم؛ فلو كان السُّجود واجبًا لأمره النَّبيِّ ﷺ ولو بعد ذلك، ولقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله لم يفرض علينا السجدة إلا أن نشاء(٦)؛ فهذه الأدلة تدل

---

(١) رواه مسلم (١٣٢٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٥٧)، وتفسير البغوي (٨/ ٣٧٦)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٠)، وزاد المسير (٦/ ١٤٠)، وتفسير الرازي (٣١/ ١٠٤)، والبحر المحيط (١٠/ ٤٤٠)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣٦١)، وتفسير الآلوسي (١٥/ ٢٩٢)، وتفسير الخازن (٤/ ٤٠٩)، وتفسير ابن عاشور (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) رواه البخاري (١٠٧٣).

(٤) ينظر: الكافي (١/ ٢٦٢)، والمجموع (٤/ ٥٨)، والمغني (١/ ٦٨٣)، وأحكام السُّجود في الفقه الإسلامي (٥١٩).

(٥) ينظر: بدائع الصَّنائع (٢/ ٢٠٢)، والهداية شرح بداية المبتدي (١/ ٧٨-٧٩)، وتبيين الحقائق (١/ ٢٠٥)، والفروع (٢/ ٢٥٦)، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢٣/ ١٣٩).

(٦) رواه البخاريُّ (١٠٧٧).

علىٰ أنَّ سجود التِّلاوة ليس بواجب ولكنه مسنون، وممَّا يدلّ علىٰ سُنِّيته للقارئ والمستمع أيضًا: قولُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ السَّجْدَةَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَيَسْجُدُ وَنَسْجُدُ مَعَهُ فَنَزْدَحِمُ حَتَّىٰ مَا يَجِدُ أَحَدُنَا لِجَبْهَتِهِ مَوْضِعًا يَسْجُدُ عَلَيْهِ[١]، وَقِيلَ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرَّجُلُ يَسْمَعُ السَّجْدَةَ وَلَمْ يَجْلِسْ لَهَا؟ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ قَعَدَ لَهَا؛ كَأَنَّهُ لاَ يُوجِبُهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا لِهَذَا غَدَوْنَا، وَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا السَّجْدَةُ عَلَىٰ مَنِ اسْتَمَعَهَا، وَكَانَ السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ لاَ يَسْجُدُ لِسُجُودِ الْقَاصِّ[٢].

المطلب السَّادس: آداب سجود التِّلاوة

شروط سجود التلاوة: يفتقر إلىٰ الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة[٣].

صفة سجود التِّلاوة من حيثُ الكيفية كسجود الصَّلاة، فينوي ويسجد علىٰ الجبهة واليدين والرَّكبتين والقدمين والأنف، ويجافي المرفقين عن الجنبين والبطن عن الفخذين، ويوجِّه أصابعه إلي القبلة، ويُسبِّح الله تعالىٰ[٤].

وللسَّاجد للتِّلاوة حالتان:

الحالة لأولىٰ: أن يسجد للتِّلاوة في غير الصَّلاة؛ فينوي ويسجد سجدةً واحدةً بلا تكبيرة إحرام، وإنَّما يكبر عند الهُوِي للسُّجود وعند الرَّفع منه استنانًا، وبهذا قال جمهور أهل العلم[٥]، وبلا سلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأمَّا سجود التِّلاوة والشُّكر؛ فلم ينقل أحدٌ عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه أنَّ فيه تسليمًا، ولا أنّهم كانوا يسلِّمون منه؛ ولهذا كان أحمد بن حنبل وغيره من العلماء لا يعرفون فيه التَّسليم[٦].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٠٧٦).

(٢) جميع هذه الآثار رواها الإمام البخاريِّ (٢/ ٥٢).

(٣) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٢٧، ٢٤٥)، والكافي في فقه أهل المدينة (١/ ٢٦٢)، والمجموع (٤/ ٦٣)، والمغني (٣/ ٩١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٤) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٣٠، ٢٤٥)، والمجموع (٤/ ٦٥)، والمغني (٣/ ٩١).

(٥) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٣٤)، والمدونة الكبرىٰ (١/ ٢٠٠)، والمجموع (٤/ ٦٥)، والمغني (٣/ ٩٤)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٦) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢١/ ٢٧٧)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

الحالة الثَّانية: أن يسجد للتِّلاوة في الصَّلاة، فيكبِّر للهُوِي إلىٰ السُّجود، ويكبِّر عند رفع رأسه، كما يفعل في سَجَدَات الصَّلاة، وهذا قول جمهور أهل العلم(١).

الذِّكر المشروع في سجود التِّلاوة:

يستحب أن يقول في سجوده ما ورد عن النبي ﷺ(٢) فمن ذلك:

- يقول: سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، يَقُولُه فِي السَّجْدَةِ مِرَارًا: «**سَجَدَ وَجْهِيَ لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ**»(٣).

- يقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا، وضع عني بها وزرا، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود عليه السلام؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ الله إني رَأَيْتُني الليلة وأنا نَائِمُ كأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فسَجَدْتُ؛ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللهمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وضع عني بها وزرا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال الحسن: قال لي ابن جريج: قال لي جدك: قال ابْنِ عَبَّاسٍ: فقرأ النَّبِيُّ ﷺ سَجْدَةً ثم سجد، فَسَمِعْتُهُ وهو يَقُولُ مثل مَا أَخْبَرَه الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ(٤).

- يقول كما يقول في سجود صلاته: سبحان ربِّي الأعلىٰ؛ لعموم قول النَّبِيِّ ﷺ في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّه قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿**فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ** ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة]، قَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى** ﴿١﴾﴾ [الأعلىٰ]، قَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»(٥).

---

(١) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٣٤)، والمدونة الكبرىٰ (١/ ٢٠٠)، والمجموع (٤/ ٥٩)، والمغني (٣/ ٩١)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٤٦)، والمجموع (٤/ ٦٤)، والمغني (٣/ ٩٣).

(٣) رواه الترمذي (٥٨٠)، وقال الألبانيُّ: «صحيح»، وأحمد (٢٥٨٦٣)، وقال الأرنؤوط: «صحيح».

(٤) رواه الترمذي (٥٧٩)، وحسَّنه الألبانيُّ، وابنُ خزيمة (٥٦٢)، وصحَّح إسناده الأعظمي، ورواه الحاكم (٧٩٩)، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ رواته مكِّيُّون لم يُذكر واحدٌ منهم بجرح، وهو من شرط الصَّحيح، ولم يخرجاه»، وقال الذَّهبيُّ: «صحيح».

(٥) رواه ابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤٥٠)، وقال الأرنؤوط: «إسناده محتملٌ للتحسين».

ولا يستحب لمن أراد سجود التِّلاوة أن يقوم، وهذا اختيار المحقِّقين من أهل العلم؛ إذ ليس لهذا القيام ذِكرٌ ولا أصل، ولم يثبت فيه شيءٌ يُعتمد ممّا يحتجَّ به[١].

ويكرِّر القارئُ السَّجدة كلَّ مرَّة كرَّر جملةً من القرآن فيها السَّجدة، كالذي يقرأ (سورة السَّجدة) مرارًا، إلَّا المعلِّم للقرآن والمتعلِّم له، فلا يُكَرِّران السُّجود[٢].

ويسجد المستمع إذا جلس ليتعلم من القارئ، وكان القارئ يصلح للإمامة؛ بأن يكون ذكرًا بالغًا عاقلًا[٣]، وأمَّا السَّامع غير القاصد للسَّماع فلا يستحبّ له، وقيل: عليه السُّجود؛ لأنَّه سامعٌ للسَّجدة فكان عليه السُّجود كالمستمع، وقال الشَّافعيُّ: لا أوكد عليه السُّجود وإن سجد فحسن[٤].

وإذا قرأ آيات السَّجدات في مكانٍ واحدٍ؛ سجد لكلِّ واحدة[٥].

وإذا سجد الإمام سجد المأموم؛ فلو لم يفعل بطلت صلاته، وإذا لم يسجد الإمام لم يسجد المأموم؛ ولو فعل بطلت صلاته[٦].

وإذا كان المُصلِّي مأمومًا؛ فلا يسجد لقراءة نفسه، بل يكره له قراءةُ السَّجدة، ولا يسجد لقراءة غير الإمام، ولو سجد لقراءة نفسه أو قراءة غير إمامه بطلت صلاته[٧].

وينبغي أن يسجد عقب قراءة آية سجدة أو استماعها؛ فإن أخَّر وقَصُرَ الفصلُ؛ سجد، وإن طال فاتت[٨].

ولا تُقضىٰ سجدةُ التِّلاوة؛ لأنَّها لعارض فأشبهت صلاة الكسوف[٩].

---

(١) ينظر: المجموع (٤/ ٦١)، والمغني (١/ ٦٨٧).

(٢) ينظر: بدائع الصنائع (١١/ ٦٥)، والمجموع (٤/ ٥٩).

(٣) ينظر: بدائع الصنائع (٢/ ٢٠٥)، والمدونة الكبرىٰ (١/ ٢٠١)، والمجموع (٤/ ٥٨)، والمغني (٣/ ٩٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٤) ينظر: المغني (١/ ٦٨٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٦)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤).

(٥) ينظر: بدائع الصَّنائع (٢/ ٢٠٩)، والإقناع في حلِّ ألفاظ أبي شجاع (١/ ١١٨).

(٦) الإقناع في حلِّ ألفاظ أبي شجاع (١/ ١١٨).

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) المصدر نفسه (١/ ١١٩).

ولو سجد للتِّلاوة قبل بلوغ السَّجدة ولو بحرف لم يصحّ سجوده، ولو قرأ بعد السَّجدة آيات، ثمّ سجد جاز، ما لم يطل الفصل، ولو قرأ سجدة فسجد فقرأ في سجوده سجدةً أخرىٰ لا يسجد ثانيًا(١).

ولو ترك السُّجود لتلاوته في الصَّلاة؛ لم يسجد إذا فرغ؛ فلأن لا يسجد بحكم سماعه أولىٰ، وهكذا الحكم إن كان التَّالي في غير صلاته، والمستمع في الصَّلاة(٢).

ولا يقوم الرُّكوع مقام السُّجود؛ لأنَّه سجود مشروع، فلا ينوب عنه الرُّكوع كسجود الصَّلاة(٣).

وإذا كان علىٰ الرَّاحلة في السَّفر؛ جاز أن يومئ بالسُّجود حيثُ كان وجهه كصلاة النَّافلة(٤).

ويكره أن ينتزع الآيات التي فيها السُّجود، فيقرأها ويسجد فيها، كرهه الشَّعبيُّ والنَّخعيُّ والحسن وإسحاق؛ وذلك لأنَّه ليس بمرويٍّ عن السَّلف فعله، بل كراهته ولا نظير له يقاس عليه(٥).

---

(١) المجموع (٤/ ٦٤).

(٢) المغني (١/ ٦٨٧).

(٣) المصدر السّابق نفسه.

(٤) المصدر السّابق نفسه.

(٥) المصدر السّابق نفسه.

المبحث الثَّاني: السَّاجدون لله وأثره في تعظيم الله تعالى

المطلب الأول: سجود الملأ الأعلى وأثره في تعظيم الله تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، لمَّا رغَّب الله -تعالىٰ- رسولَه ﷺ في الآية السَّابقة في كثرة الذِّكر بالغدو والآصال؛ لئلا يكون من الغافلين؛ ذكر عقيبه ما يقوي دواعيه في ذلك، فمدح الملائكة الذين يسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترُون عن الذِّكر وعن المواظبة عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ فهذه الآية مرتبطة بما قبلها ومنتظمة مع ما سبقها؛ وهي إخبارٌ من الله -تعالىٰ- عن الملائكة بأنّهم في عبادتهم التي أُمِروا بها دائمون، وعليها قائمون، وبها عاملون؛ فلا تكن من الغافلين فيما أُمِرت به وكُلِّفته، وهذا خطابه، والمراد بذلك جميع الأُمَّة[(١)].

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع، وقال: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ علىٰ جهة التَّشريف لهم، وأنّهم بالمكان المُكَرَّم: حملةَ العرشِ والكُروبيين والمقرَّبين بالفضل والكرامة. وهذا تشريفٌ للملائكة بإضافتهم إلىٰ الله من حيثُ أنَّه أسكنهم في المكان الذي كرَّمه وشرَّفه وجعله منزل الأنوار ومصعد الأرواح والطَّاعات والكرامات[(٢)].

قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو العبادة، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ويعظِّمونه وينزِّهونه عن كلِّ سوء وعن كلِّ شيء، ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله، وقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ يفيد الحصر، ومعناه: أنّهم لا يسجدون لغير الله؛ فيخصُّونه بغاية العبودية والتَّذلُّل، لا يُشْرِكون به غيره جلَّ شأنه، فيخصُّونه بعبادة السُّجود التي هي أشرف عبادة، فاسجدوا أنتم أيضًا له، وعظِّموا ربَّكم بالعبادة كما يفعله من عنده من ملائكته، وهو تعريضٌ بمن عداهم من المكلَّفين من أهل المعاصي؛ كما يدلّ عليه تقديم ﴿وَلَهُۥ﴾[(٣)].

---

(١) ينظر: أحكام القرآن (٤/ ٧٥)، وتفسير الرَّازي (١٥/ ٤٤٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٩).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٣٢١)، تفسير الرَّازي (١٥/ ٤٤٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٦)، وتفسير السّعدي (٣١٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٠/ ٦٧١)، وتفسير البغوي (٣/ ٣٢١)، وتفسير الرَّازي (١٥/ ٤٤٥)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٥٦)، وتفسير الآلوسي (٥/ ١٤٤)، وتفسير الشَّوكاني (٣/ ١٤١).

وتُجلِّي الآية الكريمة أثرَ سجود الملائكة عليهم السلام في تعظيم الله تعالىٰ من عدَّة جوانب، هي:

١- تصدير الآية الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾ لتنزل منزلة العلة للأمر بالذكر، والمعنىٰ: الحثُّ علىٰ تكرُّر ذكر الله في مختلف الأحوال؛ لأنَّ المسلمين مأمورون بالاقتداء بأهل الكمال من الملاء الأعلىٰ، فذكَّرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ففيه حثٌّ بلطف للتّرغيب في ذلك؛ لأنَّه إذا كان أولئك وهم في قرب المنزلة والعصمة حالهم في عبادتهم لله تعالىٰ وتسبيحه ما ذكر؛ فكيف ينبغي أن يكون غيرهم؛ ولهذا شُرِع لنا السُّجود ههنا لمّا ذكر سجودهم لله -عزَّ وجلَّ-، كما جاء في الحديث: «أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[١]؛ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا علىٰ عبادة الملك العلَّام، وفيها تعريضٌ بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنَّهم منحطون عن تلك الدَّرجات[٢].

٢- عَدَل عن ذكر لفظ الملائكة إلىٰ الموصولية؛ لما فيه من الإيذان برفعة منزلتهم؛ فيتذرَّع بذلك إلىٰ إيجاد المنافسة في التَّخلُّق بأحوالهم[٣].

٣- ذكر الله تعالىٰ في الآية الكريمة من طاعة الملائكة عليهم السلام ما يلي:

أ- نفي الاستكبار عن عبادته، وذلك بإظهار العبوديّة؛ إذ نفي الاستكبار هو الموجب للطَّاعات، كما أنَّ الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأنَّ المستكبر يرىٰ لنفسه مزيةً؛ فيمنعه ذلك من الطَّاعة.

ب- كونهم يسبِّحون، والتَّسبيح: عبارة عن تنزيه الله -تعالىٰ- من كلِّ سوء، وعن جميع ما لا يليق بذاته المقدّسة، فهم ينزِّهونه لخلوصهم عن دواعي الشَّهوات والحظوظ؛ وذلك يرجع إلىٰ المعارف والعلوم؛ فلذا قدَّمه، فأثبت التَّسبيح منهم، وإثباتهم كلّ كمال لله تعالىٰ.

---

(١) رواه مسلم (٩٩٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٩)، وتفسير الشوكاني (٣/ ١٤١)، وتفسير السعدي (٣١٤)، وتفسير الآلوسي (٥/ ١٤٤)، وتفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

ج- سجودهم؛ وذلك بمباشرة محاسن الأعمال؛ وذلك يرجع إلىٰ أعمال الجوارح.

وهذا التَّرتيب يدلّ علىٰ أنَّ الأصل في الطَّاعة والعبودية أعمال القلوب، ويتفرَّع عليها أعمال الجوارح(١).

٤- جعل حال الملائكة علَّةً لأمر النَّبيِّ ﷺ بالذِّكر؛ لأنَّ مرتبة الرِّسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة؛ فهذا التَّعليل بمنزلة أن يقال: اُذكر ربَّك؛ لأنّ الذكر هو شأن قبيلك، وليس في هذا التَّعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة أفضل من الرُّسل، كما يتوهمه المعتزلة؛ لأنَّ التَّشبه بالملائكة من حيثُ كان الملائكةُ أسبقَ في هذا المعنىٰ؛ لكونه حاصلًا منهم بالجِبِلَّة فهم مثلٌ فيه، ولا شكَّ في أنَّ الفريق الذين لم يكونوا مجبولين علىٰ ما جُبلت عليه الملائكة، إذا تخلَّقوا بمثل خُلُق الملائكة= كان سُمُوُّهم إلىٰ تلك المرتبة أعجب، واستحقاقهم الشُّكر والفضل له أجدر(٢).

٥- في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ التَّعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله، وأنّهم علىٰ النَّقيض من أحوال الملائكة المقرَّبين، فهم منحطون عن تلك الدَّرجات، وخليقٌ بهم أن يكونوا بُعَداء عن منازل الرِّفعة(٣).

٦- جيء بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وفي قوله: ﴿يَسۡجُدُونَ ۩﴾؛ للدَّلالة علىٰ التَّجديد والاستمرار(٤)؛ فتعظيمهم لله -تعالىٰ- ليس لحظيًّا ولا موقتًا بزمن محدَّد، بل متجدِّد مستمر، يسبِّحون الله ويطيعونه دائمًا لا يفتُرون عن ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾[الأنبياء](٥).

٧- دلَّت هذه الآية الكريمة علىٰ أنَّ الله -جلَّ وعلا- إن كفر به بعضُ خلقه، فإنَّ بعضًا آخر من خلقه يؤمنون به، ويلازمون طاعته دائمًا باللَّيل والنَّهار، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(١) ينظر: تفسير الرَّازي (١٥/ ٤٤٥)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤)، ونظم الدُّرر (٣/ ١٧٩).

(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٩)، وتفسير الشوكاني (٣/ ١٤١)، وتفسير السّعدي (٣١٤)، وتفسير الآلوسي (٥/ ١٤٤)، وتفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

(٤) ينظر: تفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

(٥) ينظر: أضواء البيان (٧/ ٣٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام]؛ فحري بالمؤمن أن يكون ممن اختصهم الله تعالىٰ بطاعته(١).

٨- الملائكة المقرَّبون عليهم السلام لا ينزغ في أنفسهم شيطانٌ، وهم في نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشَّهوة والغضب، وحوادث الحقد والحسد؛ ومع هذا فهم دائبون علىٰ تسبيح الله وذكره، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون، والإنسان طبيعته قابلة لنزغ الشَّيطان، وقابلة للغفلة، وهو مبتلًىٰ ومستعد للذَّات البشرية، والبواعث الإنسانية؛ فهو أحوج من الملائكة إلىٰ الذِّكر والعبادة والتَّسبيح، وأولىٰ بالمواظبة علىٰ الطَّاعة؛ ولهذا السَّبب قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١﴾ [مريم]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر]، وذكر الله تعالىٰ ليس مجرد ذكر بالشّفة واللِّسان، ولكنّه ذكرٌ باللِّسان والقلب مصحوبًا بالتَّضرع لله -تعالىٰ- والتَّذلُّل والخشية له -تعالىٰ- والخوف منه سبحانه، مع رجاءٍ وصدقِ التجاءٍ إليه تعالىٰ، وتقوىٰ واستحضارٍ لجلال الله، وعظمته(٢).

٩- الذِّكر والعبادة ناشئان عن انتفاء الاستكبار، وهما علىٰ قسمين: عبادة قلبية، وعبادة جسمانية؛ فالقلبية تنزيه الله -تعالىٰ- عن كلِّ سوء، والجسمانية السُّجود وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلىٰ الله تعالىٰ، وفي الحديث: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»(٣)، والعبادتان مرجعهما القلب، وإحداهما مدلولٌ عليها بالقول، والأخرىٰ بالفعل، ولهما أثرٌ كبيرٌ في تزكية النُّفوس وتعريفها بحقيقة ربِّها، وفي هذا تجليةٌ لنعمة الله ورحمته بالعالمين في إرشادهم لهذين الأمرين العظيمين(٤).

١٠- السِّرُّ -والله أعلم- في دخول اللَّام في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩﴾؛ لبيان أنَّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ تنزيه الله -تعالىٰ- بالقول، وأنَّ المراد

(١) ينظر: أضواء البيان (٧/ ٣٠).
(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٥/ ٤٤٥).
(٣) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وأحمد (٢١٥٥٥)، وحسَّنه الألبانيُّ في (صحيح سنن التِّرمذيُّ).
(٤) ينظر: البحر المحيط (٥/ ٢٦٤)، ونظم الدُّرر (٣/ ١٧٩).

بالسُّجود عملٌ؛ فلذا ذكر السُّجود باسمه الخاصِّ ليكون السُّجود زيادةً علىٰ تسبيحهم، وذكرهم له، وتنزيههم إيَّاه[١].

١١- لما في الآية من التَّعريض بالمشركين؛ شُرِع السُّجود هنا؛ إرغامًا لمن أبىٰ ممَّن عرَّض به.

١٢- مقتضىٰ السَّجدة هنا: أنَّ الآية جاءت للحضِّ علىٰ التَّخلُّق بأخلاق الملائكة في الذِّكر، فلمَّا أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو السُّجود لله= أراد الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يبادر بالتَّشبه بهم تحقيقًا للمقصد الذي سيق هذا الخبر لأجله، وليظهر إيمانُ المؤمنين بالقرآن، وجحود الكافرين به حين سجد المؤمنون، وليظهر إغاظة المشركين[٢].

١٣- السَّجدة في الآية كأنَّما جاءت لتزيد في النَّفس الاستعداد للحسم، فربما بهذه السَّجدة يصحو الغافل من غفلته، ويحسم السَّلبيُّ موقفه إذا عرف بين يدي من يسجد؛ فيعود الىٰ الحقِّ[٣].

المطلب الثاني: سجود الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وأثره في تعظيم الله تعالى

قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ [مريم].

في المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قولان لأهل العلم:

القول الأوَّل: جنس الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والمعنىٰ: هؤلاء النَّبيُّون، وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السُّورة فقط، بل جنس الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، استطرد من ذكر الأشخاص إلىٰ الجنس ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ الآية[٤].

القول الثاني: إشارة إلىٰ من تقدم ذكره في هذه السُّورة من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٥].

---

(١) ينظر: التفسير القيم (٢/ ١٨٧)، وتفسير ابن عاشور (٣٠/ ٢٤٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور (٨/ ٤١٤).

(٣) لمسات بيانية (١/ ١١).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١).

(٥) ينظر: تفسير الرَّازي (٢١/ ٥٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ٢٧٦)، وتفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨)، وأضواء البيان (٣/ ٤٤٢).

والرَّاجح -والله أعلم- أنَّ المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء عليهم السلام، وممَّا يؤيِّده أنها كقوله -تعالىٰ- في (سورة الأنعام): ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إلىٰ أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وعن مُجاهِد: أنَّه سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَفِي (ص) سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ إلىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠]؛ ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ، زَادَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ الْعَوَّامِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لاِبْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ[١]. يعني: داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

أنعم الله عليهم نعمةً لا تُلْحَق، ومِنّةً لا تُسبَق، من النُّبوَّة والرِّسالة، وبفنون النِّعم الدِّينية والدُّنيوية، وأحسن جزاءً علىٰ ما قدَّموه من الإعمال، وتلك وإن كانت نعمًا وهدايةً واجتباءً، فقد زادت هذه الآية بإسناد تلك العطايا إلىٰ الله -تعالىٰ- تشريفًا لها، فكان ذلك التَّشريف هو الجزاء عليها؛ إذ لا أزيد من المُجازي عليه إلَّا تشريفه تعالىٰ.

وبيَّن الله -تعالىٰ- هنا أنَّه أنعم عليهم واجتباهم وهداهم، وزاد علىٰ هذا في (سورة النساء) بيان جميع مَن أنعم عليهم من غير الأنبياء في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾، وبيَّن في (سورة الفاتحة) أنَّ صراط الذين أنعم عليهم غير صراط المغضوب عليهم ولا الضالين؛ ولذا أُمِرْنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٢)، وينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١).

(٢) ينظر: أضواء البيان (٣/ ٤٤٢)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).

وقرأ الجمهور ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بياءين بعد الموحدة، وقرأه نافعٌ وحدَه بهمزة بعد الموحدة[(١)].

قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾.

يريد إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وحده، ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرية مَن حملنا مع نوح في السَّفينة، يريد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وحدَه؛ لأنَّه وُلِد من سام بن نوح، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ﴿وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ومن ذرية يعقوب، وهم: موسىٰ وهارون وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ عليهم السلام؛ فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل مَن بعده، وإبراهيم يشمل فرعَي النُّبوة الكبيرَين، ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل، وإسماعيل إليه ينتسب العربُ، ومنهم خاتم النبيين، فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم، فرتَّب الله -سبحانه وتعالىٰ- أحوال الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم علىٰ هذا التَّرتيب منبِّهًا بذلك علىٰ أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالهم؛ فلهم مزيدٌ في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام[(٢)].

قال ابن جرير: ولذلك فرّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأنَّ فيهم مَن ليس من ولد مَن كان مع نوح في السَّفينة، وهو إدريس، فإنَّه جدُّ نوحٍ[(٣)]، قال ابن كثير: هذا هو الأظهر أنَّ إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام[(٤)].

وقيل: إنَّه من أنبياء بني إسرائيل، أخذًا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه علىٰ النَّبيِّ ﷺ: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ**»، ولم يقل: وَالولد الصَّالِحِ[(٥)]، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام[(٦)].

وفي الآية دليلٌ علىٰ أنَّ أولاد البنات من الذُّرِّية؛ لدخول عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولا أب له، وجعل إطلاق الذُّرِّية عليه بطريق التَّغليب خلاف الظَّاهر[(٧)].

---

(١) ينظر: إتحاف فضلا البشر (١/ ٣٧٩)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).

(٢) تفسير الرازي (٢١/ ٥٥٠).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١).

(٥) رواه البخاري (٣٤٩)، بلفظ: «**وَالابْنِ الصَّالِحِ**».

(٦) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١).

(٧) تفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥).

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

أي: هؤلاء كانوا ممن أرشدنا للحق، وهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واختارهم للنبوة والكرامة، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب، وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد[١]، حال عظيمة وصفها الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾.

قرأ الجمهور: ﴿تُتْلَىٰ﴾ بتاء التَّأنيث، وقرأ عبد الله بن أحمد العجلي عن حمزةَ وورش في رواية النَّحاس، وابنُ ذكوان في رواية التَّغلَبي: ﴿يُتْلَىٰ﴾ بالياء التَّحتية؛ لأنَّ التَّأنيث غير حقيقي، ولوجود الفاصل[٢].

و﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد بوزن (فُعل) مثل عُذل، ﴿وَبُكِيًّا ۩﴾ جمع باكٍ، بوزن (فَعول جمع فاعل) مثل قوم قُعُود؛ لأنَّ فعله بكىٰ يبكي، فأصله: بَكَوِي، فلمَّا اجتمع الواو والياء وسبق إحداهما بالسُّكون؛ قُلِبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، وحُرِّكت عينُ الكلمة بحركة مناسبة للياء[٣].

ونصب ﴿سُجَّدًا﴾ علىٰ الحال ﴿وَبُكِيًّا ۩﴾ عُطِف عليه[٤].

قرأ الجمهور: ﴿بُكِيًّا﴾ بضمِّ الباء، وقرأ عبد الله ويحيىٰ والأعمش وحمزة والكسائي بكسرها[٥].

والمعنىٰ: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائلَه وبراهينَه؛ سجدوا لربِّهم خضوعًا واستكانةً، وخشعوا لآيات الله، وحمدًا وشكرًا علىٰ ما هم فيه من النِّعم العظيمة، مع ما لهم من علوِّ الرُّتبة، وسُمُوِّ الطَّبقة في شرف النَّسب، وكمال النَّفس، وسُمُوِّ الزُّلفىٰ عنده تعالىٰ، وأثَّرت الآيات في قلوبهم من الإيمان والرَّغبة والرَّهبة= ما أوجب لهم البكاء والإنابة، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله؛ خَرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا[٦].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٥)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٣٩)، وتفسير الرَّازي (٢١/ ٥٥٠)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٢١)، وتفسير السَّعدي (٤٩٦)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).
(٢) ينظر: إتحاف فضلا البشر (١/ ٣٧٩)، والبحر المحيط (٧/ ٢٧٦).
(٣) ينظر: تفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).
(٤) تفسير القرطبي (١١/ ١٢١).
(٥) ينظر: إتحاف فضلا البشر (١/ ٣٧٦)، والبحر المحيط (٧/ ٢٧٦).
(٦) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٥)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٣٩)، وتفسير الرازي (٢١/ ٥٥٠)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١)، تفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).

والمراد من السُّجود سجود التِّلاوة حسبما تُعُبِّدْنا به عند سماع بعض الآيات القرآنية[١]، وهذا الموضع من عزائم السُّجود بلا خلاف بين العلماء في ذلك[٢].

وتجلِّي الآية الكريمة أثرَ سجود الأنبياء والمرسلين -عليهم الصَّلاة والسلام- في تعظيم الله -تعالىٰ- من عدَّة جوانبَ، هي:

١- الإتيان بالإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دون الضَّمير؛ إذ فيه من معنىٰ البعد للإشعار بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، و للتَّنبيه علىٰ أنَّ المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة من الأوصاف، أي: كانوا أحرياء بنعمة الله عليهم، وكونهم في عداد المهديين المجتبين، وخليقين بمحبتهم لله تعالىٰ وتعظيمهم إيَّاه[٣]، فجدير بالمؤمن أن يتخلَّق بأخلاقهم، ويلحق بركبهم.

٢- في إضافة الآيات إلىٰ اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دلالة علىٰ أنَّ آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيثُ هداهم بها إلىٰ الحقِّ، وبصَّرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضَّلالة، وعلَّمهم من الجهالة[٤]، كما ترشد الآية لكريمة علىٰ أنَّ لآيات الرَّحمن تأثيرًا في القلوب[٥]، وفي استشعار هذا أعظم أثر لتعظيم الله تعالىٰ في النُّفوس.

٣- تُظْهِر الآية الكريمة أبرز ملمح في الأنبياء والمرسلين -عليهم الصَّلاة والسَّلام- وأوضح صفة؛ فهم ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩﴾، أتقياء يهتز وجدانهم حين تُتلىٰ عليهم آيات الرَّحمن تبارك وتعالىٰ، فلا تسعفهم الكلمات للتَّعبير عمّا يُخالج مشاعرهم من تأثُّر، فتفيض عيونهم بالدُّموع، ويَخِرُّون سُجَّدًا وبُكِيًّا، فوصفهم بالخشوع لله والبكاء[٦]، وأثنت الآية الكريمة علىٰ سجودهم قصدًا للتَّشبه بهم بقدر الطَّاقة، حين نحن متلبِّسون بذكر صنيعهم، وقد سجد النَّبيُّ ﷺ عند

---

(١) تفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٤٢).

(٣) ينظر: تفسير الرَّازي (٢١/ ٥٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ٢٧٦)، وتفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨)، وأضواء البيان (٣/ ٤٤٢).

(٤) تفسير السعدي (٤٩٦).

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ١٢١).

(٦) تفسير القرطبي (١١/ ١٢١).

هذه الآية، وسَنَّ ذلك لأُمَّته؛ فلهذا أجمع العلماء على شرعية السُّجود هاهنا؛ فنحن نسجد اقتداءً بهم، واتباعًا لمنوالهم عند تلاوة الآيات التي أُنزلت إلينا(١).

٤- المراد بالبكاء الذي ينشأُ عن انفعال النَّفس انفعالًا مختلطًا بالتَّعظيم والخوف(٢)؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»(٣)، والأفضل اخفائه وعدم اظهار الصوت معه، كما جاء وصفهم في الآية الكريمة ﴿وَبُكِيًّا ۩﴾؛ إذ البكي يقال: إذا كان الحزن أغلب من الصوت(٤)، وهذا من آثار تعظيم الله تعالى في النُّفوس.

٥- في ضمِّ السُّجود إلى البكاء إبانة عن طريقة الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- في تعظيمهم لله -تعالى- وآياته(٥)؛ ولذا قال أهل العلم: يستحبُّ السُّجود والبكاء عند سماع التِّلاوة(٦)، وعند ما قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سورة مريم) فسجد، قال: «هذا السُّجود، فأين البُكِيُّ؟» يريد البكاء(٧).

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص].

لمَّا ذكر -تعالى- أنَّه آتى نبيَّه داودَ الفصلَ في الخطاب بين النَّاس، وكان معروفًا بذلك مقصودًا= ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١)، وتفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).
(٢) تفسير ابن عاشور (١٦/ ٥٨).
(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢١/ ٥٥٠).
والحديث أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن التّرمذيّ).
(٤) ينظر: مفردات القرآن (١٤١)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٢١).
(٥) تفسير القرطبي (١١/ ١٢١).
(٦) ينظر: تفسير الآلوسي (٨/ ٤٢٥).
(٧) تفسير الطبري (١٥/ ٥٦٦)، وينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤١).

وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيَّض له هذه القضية، فقال لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فإنَّه نبأٌ عجيبٌ ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾ علىٰ داود ﴿الْمِحْرَابَ﴾ أي: محلّ عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب؛ فلذلك لمَّا دخلوا عليه بهذه الصُّورة؛ فزع منهم، وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ولا تَمِلْ مع أحدنا ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ والمقصود من هذا: أنَّ الخصمين قد عُرِف أنَّ قصدهما الحقَّ الواضح الصَّرف، وإذا كان ذلك؛ فسيقُصَّان عليه نبأهما بالحقِّ، فلم يشمئز نبيَّ الله داودَ من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ نصَّ علىٰ الأُخوة في الدِّين أو النَّسب أو الصَّداقة؛ لاقتضائها عدم البَغي، وأنَّ بغيَه الصَّادرَ منه أعظمُ من غيره، ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ النَّعجة الأنثىٰ من الضَّأن والبقرة الوحشية والشَّاة الجبلية، والجمع النَّعجات، والعرب جرت عادتُهم بجعل النَّعجة والظَّبية كناية عن المرأة[1]، أي: تسع وتسعون زوجة، وذلك خيرٌ كثيرٌ، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فطمع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: دعها لي، وخِلّها في كفالتي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتَّىٰ أدركها أو كاد[2]، ﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ أي: بسؤاله نعجتك ليضمَّها إلىٰ نعاجِه. ومن المعلوم من السِّياق السَّابق من كلامهما: أنَّ هذا هو الواقع؛ فلهذا لم يحتج أن يتكلَّم الآخر، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشُّركاء الذين خلطوا أموالهم، جمع خليط، ﴿لَيَبْغِي﴾ وقُرئ بفتح الياء علىٰ تقدير النُّون الخفيفة وحذفها، وأصله: لَيَبْغَيَنْ، ويكون علىٰ تقدير قسم محذوف، ذلك القسم وجوابه خبرٌ لـ ﴿إِنَّ﴾، وعلىٰ قراءة الجمهور يكون ﴿لَيَبْغِي﴾ خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾، وقُرئ: ﴿لَيَبْغِ﴾ بحذف الياء اكتفاءً بالكسرة[3]، ليتعدَّىٰ ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يظلم بعضهم بعضًا.

وفي الآية دلالةٌ علىٰ أنَّ زمان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان فيه الظلم والاعتداء كثيرًا، وتدلُّ أيضًا علىٰ أنَّ هذه عادة الكثير من الخُلَطاء والقُرَناء، وتدلّ أيضًا علىٰ أنَّ الظُّلم من صفة النُّفوس، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنَّ ما معهم من الإيمان والعمل الصَّالح يمنعهم من الظُّلم لأيِّ أحد،

---

(١) تفسير الرَّازي (٢٦/ ٣٨٤)، وينظر: تفسير السعدي (٧١١).

(٢) تفسير السعدي (٧١١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٩/ ١٥٠)، وتفسير الآلوسي (١٢/ ١٧٤).

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: قليلٌ هم، و﴿مَّا﴾ صِلة تفيد معنىٰ الإبهام للتَّعظيم والتَّعجب من قِلَّتهم، يعني: الصَّالحين الذين لا يظلمون، وقصد داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الكلام الموعظة الحسنة، والتَّرغيب في إيثار عادة الخُلَطاء الصُلَحاء الذين حُكِم لهم بالقِلَّة، وأن يُكَرِّه إليهم الظُّلم، وأن يُسَلِّي المظلومَ عمَّا جرىٰ عليه من خليطه، وأنَّ له في أكثر الخُلَطاء أُسوة.

قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ أيقن وعلم، ﴿أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ إنَّما ابتليناه بالذَّنب أو امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها.

والقَرَأة: ﴿فَتَنَّهُ﴾ بتشديد النُّون دون التَّاء، وقرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبو رجاء والحسن بخلاف عنه ﴿فَتَّنَّاهُ﴾ بتشديد التَّاء والنُّون علىٰ المبالغة، وقرأ قتادة وأبو عمرو في رواية وعُبيد بن عمير وابن السَّمَيفع ﴿فَتَنَاهُ﴾ بتخفيف التَّاء والنُّون، والألف ضميرُ الخصمين، والضَّحاك: ﴿أفتناه﴾[(١)].

وتدلُّ الآية علىٰ جواز القضاء في المسجد[(٢)].

قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لِما صدر منه، وقد اختلف المفسِّرون في الذَّنب الذي استغفر منه علىٰ أقوال، وأكثر ما يذكره كثيرٌ من المفسِّرين في تفسير هذه الآية الكريمة ممَّا لا يليق بمنصب داود -عليه وعلىٰ نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام-، كلُّه راجعٌ إلىٰ الإسرائيليات ممَّا هو هُزؤٌ وافتراءٌ، فلا ثقةَ به، ولا مُعَوَّل عليه، وما جاء منه مرفوعًا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ لا يصحُّ منه شيءٌ[(٣)].

ويُعلم قطعًا أنَّ الأنبياء -عليهم السَّلام- معصومون من الخطايا، لا يمكن وقوعهم في شيءٍ منها ضرورة أن لو جوَّزنا عليهم شيئًا من ذلك، بطلت الشَّرائع، ولم نثق بشيءٍ ممَّا ذُكر من الإسرائيليات علىٰ أنَّه أوحىٰ الله به إليهم، فما حكىٰ الله -تعالىٰ- في كتابه يُمَرّ علىٰ ما أراده تعالىٰ، وما حكىٰ القُصَّاص ممَّا فيه غضٌّ عن منصب النُّبوَّة= طرحناه[(٤)].

وجميع العلماء أجمعوا علىٰ عصمة الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- في كلِّ ما يُتعلَّق بالتَّبليغ، واختلفوا في عصمتهم من الصَّغائر التي لا تَعَلُّق لها بالتَّبليغ اختلافًا

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٧٩)، والبحر المحيط (٩/ ١٥٠)، وتفسير الشوكاني (٦/ ٢٣٧)، وتفسير الآلوسي (١٢/ ١٧٥).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٧/ ٢٢).

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي (٥/ ٤٣)، وأضواء البيان (٦/ ٣٣٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٩/ ١٥٠).

مشهورًا معروفًا في الأصول، ولا شكَّ أنَّهم -صلوات الله عليهم وسلامه- إن وقع منهم بعض الشَّيء؛ فإنّهم يتداركونه بصدق الإنابة إلىٰ الله، حتَّىٰ يبلغوا بذلك درجةً أعلا من درجة مَن لم يقع منه ذلك(١).

﴿وَخَرَّ﴾ خرَّ خُرورا: سقط، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل]، والخُرُور: الهُوِيُّ إلىٰ الأرض.

﴿رَاكِعًا﴾ حال، وأصل الرُّكوع: الانحناء بقصد التَّعظيم دون وصولٍ إلىٰ الأرض، قال تعالىٰ: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فذكر شيئين، والمراد به هنا -والله أعلم-: السُّجود، قال ابن العربي: «لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود»(٢)؛ فعبَّر بالرُّكوع عن السُّجود، وكان ركوعُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تضرعًا لله -تعالىٰ- ليقبل استغفاره.

﴿وَأَنَابَ ۩﴾ الإنابة: التَّوبة، يقال: أناب وناب، أي: تاب من خطيئته، ورجع إلىٰ الله بالتَّوبة النَّصوح والعبادة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ذلك الذَّنبَ الذي صدر منه ممَّا يُقال فيه: إنَّ حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، وأكرمه الله بأنواع الكرامات.

ومن لطائف القرآن أنَّه طوىٰ القِصَّة التي تمثَّل له فيها الخصمان، ثمَّ أشار إلىٰ المَطْوِيّ باسم الإشارة في قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾(٣).

يكون الوقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تامٌّ، ثم تبتدئ ﴿وَإِنَّ لَهُ﴾ والمعنىٰ: رجع إلىٰ الله -تعالىٰ- فغفَر له ذلك الظَّنِّ، ولذلك أشار بقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾، ولم يتقدّم سوىٰ قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾(٤)، ويجوز الوقف علىٰ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ ثمّ تبتدئ ﴿ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ﴾ والمعنىٰ: الأمر ذلك(٥).

---

(١) أضواء البيان (٤/ ١٠٥).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٧/ ٢٦).

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور (٢٣/ ١٣٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٩/ ١٥١).

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٨٤).

﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ بعد المغفرة ﴿عِندَنَا﴾ يوم القيامة، ﴿لَزُلۡفَىٰ﴾ لقربة ومكانة ومنزلة عالية، وهو مصدر أو اسم مصدر، وتأكيد الخبر لإزالة توهم أنَّ الله غضب عليه؛ إذ فتنه تنزيلًا لمقام الاستغراب منزلة مقام الإنكار، ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ المآب: مصدر ميمي بمعنىٰ الأوب، وهو الرُّجوع إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، والمعنىٰ: حُسن مرجع ومنقلب وكرامة عند الله يوم الجزاء في الجنَّة(١).

وتُجلِّي الآية الكريمة أثرَ سجود الأنبياء والمرسلين -عليهم الصَّلاة والسَّلام- في تعظيم الله -تعالىٰ- من عدّة جوانبَ، هي:

١- وجه سجودنا في الآية الكريمة اقتداءٌ بالنبي ﷺ لأنَّه سجد فيها؛ فنحن نسجد اتِّباعًا له ﷺ؛ فعن مُجَاهِدٍ: أَنَّه سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَفِي (ص) سَجْدَةٌ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ إِلىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠]؛ ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ الْعَوَّامِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ! فَقَالَ: «نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ»(٢). يعني: داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وهذا من أعظم الأثار في تعظيم الله تعالىٰ؛ وذلك باتِّباع الأنبياء والمرسلين -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، والسَّير علىٰ منهجهم، واقتفاء آثارهم.

٢- أتبع الله الخبرَ عن الغفران له بما هو أرفع درجة، وأنَّ داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المقرَّبين عند الله المرضي عنهم، وأنَّه لم يوقف به عند الغفران لا غير؛ وهذا من أعظم الأثار في تعظيم الله تعالىٰ؛ لأنَّه يدفع المؤمن أن يتحرَّىٰ ما يكون سببًا للمغفرة والقرب من الله تعالىٰ؛ فإن داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سجد خاضعًا لربِّه تعالىٰ، معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته، فإذا سجد أحدٌ فيها فليسجد بهذه النِّيَّة، فلعلَّ الله أن يغفر له(٣).

٣- هذا الذَّنب الذي صدر من داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلىٰ ذكره، فالتَّعرض له من باب التَّكلُّف، وإنَّما الفائدة ما قصَّه الله علينا من لُطفه به، وتوبته وإنابته، وأنَّه ارتفع محلّه؛ فكان بعد التَّوبة أحسنَ منه قبلها(٤)؛ فليحرص المؤمن علىٰ ما ينفعه، وليجتهد في تحصيله، وهذا من أعظم الأثار في تعظيم الله تعالىٰ.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ٨١)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١٧٩)، والبحر المحيط (٩/ ١٥٠)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٦٠)، وتفسير البيضاوي (٥/ ٤٣)، وتفسير ابن عاشور (٢٣/ ١٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٢).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٧٩)، وتفسير ابن عاشور (٢٣/ ١٣٩).

(٤) تفسير السعدي (٧١١).

المطلب الثالث: سجود أولي العلم وأثره في تعظيم الله تعالى

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

يقول تعالىٰ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾، جزم ﴿لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ بالعطف علىٰ المجزوم، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]، فحرف ﴿لَا﴾ حرف نفي وليس حرف نهي، ولا يقع مع الأمر المراد به التَّسوية إلَّا كذلك، وهو كناية عن الإعراض عنهم، واحتقارهم، وقلَّة المبالاة بهم، ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرَّسول ﷺ.

الضَّمير في قوله: ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد إلىٰ القرآن لدلالة السياق واللحاق علىٰ ذلك.

وهذا من الله -عزَّ وجلَّ- علىٰ وجه التَّبكيت لهم، والتَّهديد والوعيد، لا علىٰ وجه التَّخيير. وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لأمره بالإعراض عنهم واحتقارهم؛ فسواء آمنتم به، أم لا؛ فهو حقٌّ في نفسه، أنزله الله ونوَّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزَّلة علىٰ رسله -عليهم الصَّلاة والسَّلام-؛ وليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنَّما ضرر ذلك عليكم، فإنَّ لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلمَ النَّافع، الذين قرأوا الكتبَ السَّابقة قبل إنزال القرآن، وعرفوا حقيقةَ الوحيِّ وأمارات النُّبوَّة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النَّبيِّ ﷺ، وهم من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسَّكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدِلُّوه ولم يحرِّفوه، وهم الذين كانوا يطلبون الدِّين قبل مبعث رسول الله ﷺ، ثم أسلموا بعد مبعثه من مؤمني أهل الكتاب كزيد بن عَمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسيّ وعبد الله بن سلام وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ممَّن آمن في وقت النَّبيِّ ﷺ وبعد ذلك؛ وفي هذا إخبارٌ بمُغيَّب، وهو أظهرُ لقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾.

وقال الحسن: المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ محمَّد ﷺ، والضَّمير في ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ عائد علىٰ القرآن حسب الضَّمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الكلام علىٰ حذف مضاف معلوم من المقام، المقصود به القرآن؛ فيتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له؛ ففي الآية إشارة إلىٰ أنَّه لا أشرف من سماع القرآن، فهو الرَّوح والرَّيحان[1].

---

(١) ينظر: تفسير الآلوسي (٨/ ١٨٦).

﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ الخُرُور هو السُّقوط بسرعة، ومنه: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، أي: يسقطون علىٰ الأذقان، جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه، مجتمع اللحيين؛ فإذا ابتدأ الإنسان بالخرور إلىٰ السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلىٰ الأرض الذقن، ويطلق الذقن علىٰ الوجه تعبيرا بالجزء عن الكل، ويعبر بالشيء عما جاوره؛ فيقال: خر لوجهه ساجدا، وإن كان لم يسجد علىٰ خده ولا عينه؛ ولذا قيل هو المراد، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه، وقيل: أريد حقيقة الأذقان لأن ذلك غاية التواضع؛ فالمراد المبالغة في الخشوع وهو تعفير اللحىٰ علىٰ التراب(١).

ومعنىٰ اللَّام في ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ جعل ذقنه ووجهه للخُرُور، واختصه به؛ لأنَّ اللَّام للاختصاص؛ فكأنّهم خصُّوا أذقانهم بالخُرُور، أو خصُّوا الخُرُور بأذقانهم.

وقيل: اللَّام بمعنىٰ (علىٰ)، تقول: سقط لِفِيه، أي: علىٰ فِيه، كما في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات]، وأصل هذه اللَّام أنّها استعارة تبعية، اُستعير حرفُ الاختصاص لمعنىٰ الاستعلاء، للدَّلالة علىٰ مزيد التَّمكن، كتمكن الشَّيء بما هو مختصٌّ به.

﴿سُجَّدًا﴾ أي: سُجَّدًا لله -عزَّ وجلَّ-، شكرًا علىٰ ما أنعم به عليهم، من جعله إيَّاهم أهلًا إن أدركوا هذا الرَّسول الذي أُنزل عليه هذا الكتاب، وانتصب ﴿سُجَّدًا﴾ علىٰ الحال(٢). والظَّاهر أنَّه خرورٌ وسجودٌ علىٰ الحقيقة، بوضع الجبهة علىٰ الأرض؛ إذ هذا غاية الخُرُور ونهاية الخُضُوع(٣)، وقيل: المقصود أنّهم ينقادون لما سمعوا، ويخضعون له كمال الانقياد والخضوع، فأخرج الكلامَ علىٰ سبيل الاستعارة التَّمثيلية(٤).

﴿وَ﴾ هم في سجودهم ﴿يَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ يسبِّحون الله -تعالىٰ- عمَّا لا يليق بجلاله، ممَّا نسبه إليه المشركون، وتعظيمًا وتوقيرًا علىٰ قدرته التَّامَّة، ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بالبعث

١() ينظر: تفسير الرازي ٢١/ ٤١٧، وتفسير البحر المحيط ٧/ ١٢٤، وتفسير الشوكاني ٤/ ٣٦١، تفسير الآلوسي ٨/ ١٧٨، وتفسير ابن عاشور ١٤/ ١٨٢.

٢() ينظر: تفسير الرازي ٢١/ ٤١٧، وتفسير البحر المحيط ٧/ ١٢٤، وتفسير الشوكاني ٤/ ٣٦١، وتفسير الآلوسي ٨/ ١٧٨، وتفسير ابن عاشور ١٤/ ١٨٢.

٣() ينظر: تفسير الرازي ٢١/ ٤١٧، وتفسير البحر المحيط ٧/ ١٢٤، وتفسير الشوكاني ٤/ ٣٦١، وتفسير الآلوسي ٨/ ١٧٨، وتفسير ابن عاشور ١٤/ ١٨٢.

٤() تفسير الآلوسي ٨/ ١٧٨.

والجزاء بالأعمال، وبإنزال القرآن، وبعث محمَّد ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ اللَّام دخلت للتَّوكيد، أي: كائنًا واقعًا، لا خُلفَ فيه ولا شكَّ، ولا يخلف الميعاد الذي وعدهم علىٰ ألسنة الأنبياء عليهم السلام المتقدمين عن بعثة النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ ممَّا يدلّ علىٰ أنَّ هؤلاء كانوا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الوعد ببعثة محمَّد سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجازَ ذلك الوعد.

وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ دليلٌ علىٰ جواز التَّسبيح في السُّجود؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[١].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة علىٰ صفة لا عطف سجود علىٰ سجود، كما قال الشاعر:

إلَىٰ المَلك القَرْم وابن الهُمام ... وَلَيْث الكَتِيبَة في المُزْدَحَمْ

وكرَّر ذكر الخُرُور للأذقان لاختلاف السَّبب والحال المقترنة بها؛ فإنَّ الأوَّل لتعظيم الله -سبحانه- وتنزيهه، وشكره عند انجاز وعده، والثاني: حال كونهم باكين من خشية الله، متأثرين بمواعظ القرآن في قلوبهم، ومزيد خشوعهم؛ فخَرُّوا خُرُورًا عظيمًا ساجدين باكين؛ فذكر مرَّتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع[٢].

قوله تعالىٰ: ﴿يَبْكُونَ﴾ خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله؛ ولذا البكاء مستحب عند قراءة القرآن.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ علىٰ جواز البكاء في الصَّلاة من خوف الله تعالىٰ، أو علىٰ معصيته في دين الله، وأنَّ ذلك لا يقطعها ولا يضرُّها؛ فعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قال: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجَل -يعني: يبكي-[٣].

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ اللهُ خشوعًا بسماع القرآن، أو القرآن يزيدهم خشوعًا بسماعهم له، كما يزيدهم علمًا ويقينًا بالله[٤]. ﴿خُشُوعًا ۩﴾ لين قلب ورطوبة عين، ممّا يورث خضوعًا

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٧)، وتفسير الآلوسي (٨/ ١٧٨)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٤٧١)، وتفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).

(٣) رواه النسائي (١٢١٤)، وأحمد (١٦٣٥٥)، وصححه الألباني والأرنؤوط.

(٤) تفسير البيضاوي (٣/ ٤٧١).

لربِّهم، وإيمانًا وتسليمًا، كما قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، وكما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد][1].

وقد جاء في مدح البكاء من خشيته تعالىٰ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2].

وتجلي الآية الكريمة أثر سجود أولي العلم في تعظيم الله تعالىٰ من عدة جوانب هي:

١- في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ تمييز أولي العلم عن الجهال، وحاصله: أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجُهّال الذين لا علم عندهم، ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه -عليهم الصَّلاة والسَّلام-؛ فلا تبال بذلك؛ وفي هذا تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم، وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم، وأنّهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خيرٌ منهم؛ فقد آمن به أهل العلم، وخشعوا له، وخضعوا عند تلاوته عليهم خضوعًا ظهر أثره البالغ بكونهم يَخِرُّون علىٰ أذقانهم سُجَّدًا لله، وسبَّحوا الله تعظيمًا لوعده، ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة، وبشَّر به من بعثة محمَّد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وفي هذا أعظم بيان لفضل أهل العلم وتعظيمهم لله تعالىٰ، وشِدّة تأثُّرهم بما أنزل[3].

٢- ذكر الذِّقن للدَّلالة علىٰ تمكينهم الوجوه كلّها من الأرض من قوّة الرَّغبة في السُّجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالىٰ.

٣- قال: ﴿سُجَّدًا﴾ ولم يقل: يسجدون؛ فالمقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم إلىٰ ذلك، حتىٰ أنّهم يسقطون؛ فسجودهم سجود تعظيم لله عند مشاهدة آيةٍ من دلائل علمه، وصدق رسله، وتحقيق وعده بعد سنين طويلة[4].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٥/ ١١٩)، وتفسير البغوي (٥/ ١٣٦)، وتفسير الرَّازي (٢١/ ٤١٧)، وزاد المسير (٤/ ١٩٩)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ١٢٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ١٢٧)، وتفسير السّعدي (٤٦٨)، وتفسير الشوكاني (٤/ ٣٦١)، وتفسير الآلوسي (٨/ ١٧٨)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٤٧١)، وتفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).

(٢) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن التّرمذيّ).

(٣) ينظر: تفسير الرَّازي (٢١/ ٤١٧)، وتفسير الآلوسي (٨/ ١٧٨)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٤٧١).

(٤) تفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).

٤- عطفت ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ على ﴿يَخِرُّونَ﴾ للإشارة إلىٰ أنَّهم يجمعون بين الفعل الدَّال على الخضوع، والقول الدَّال على التَّنزيه والتَّعظيم، ونظيره ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩﴾[السجدة: ١٥][١].

٥- كرَّر الخُرور لاختلاف حالَي السُّجود والبكاء؛ إذ جاء التَّعبير عن الحالة الأولىٰ بالاسم، وعن الحالة الثَّانية بالفعل؛ وذلك لأنَّ حالة السُّجود غير متجددة في كلّ وقت، فعبّر فيها بالاسم، ولأنَّ بكاءَهم دام مستمرٌّ ناشئٌ من الخشية النَّاشئة من التَّفكر الذي يتجدد؛ ناسب ذكر الفعل[٢].

٦- قولهم: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ دلالة على التَّعجب والبهجة من تحقّق وعد الله في التَّوراة والإنجيل بمجيء الرَّسول الخاتم ﷺ[٣].

٧- ينبغي أن يكون ذلك حال العلماء، ولكلّ من توسَّم بالعلم، وحصّل منه أن يسابق إلىٰ هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذلّ؛ وذلك لأنَّ القرآن الكريم يزيدهم علمًا ويقينًا بأمر الله -تعالىٰ- علىٰ ما حصل عندهم من الأدلة، فيبكون خوفًا ممّا جرىٰ به القلم في الفاتحة ويظهر في الخاتمة، ويبكون تحسُّرًا علىٰ ما يفوتهم وقصَّروا فيه من الأعمال الصَّالحة، ويبكون عند ذكر الله -سبحانه-، وذكر وعده ووعيده[٤]؛ فعن عبد الأعلى التَّيميّ، قال: مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لاَ يُبْكِيهِ؛ لَخَلِيقٌ أَنْ لاَ يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُهُ؛ لأَنَّ الله -تَعَالَىٰ- نَعَتَ الْعُلَمَاءَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾[٥].

٨- من السُّنة سجود القارئ والمستمع له بقصد هذه الآية اقتداءً بأولئك السَّاجدين، بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن، إلَّا وهو يرىٰ أنَّه أجدر بالسُّجود عند تلاوة القرآن[٦].

(١) تفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).
(٢) البحر المحيط (٧/ ١٢٤)، وتفسير الآلوسي (٨/ ١٧٨)، وتفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).
(٣) تفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).
(٤) ينظر: تفسير الآلوسي (٨/ ١٨٦).
(٥) رواه الدَّارمي (٢٩٩)، وإسناده جيِّد، وينظر: زاد المسير (٤/ ١٩٩)، والبحر المحيط (٧/ ١٢٤)، وتفسير الآلوسي (٨/ ١٧٨).
(٦) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٤/ ١٨٢).

المطلب الرابع: سجود المؤمنين وأثره في تعظيم الله تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة].

لمَّا ذكر -تعالىٰ- الكافرين بآياته، وما أعدَّ لهم من العذاب؛ ذَكَر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعدَّ لهم من الثَّواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وهي جملة مستأنفة لبيان من يستحق الهداية إلىٰ الإيمان، ومن لا يستحقها.

ومفاد ﴿إِنَّمَا﴾ قصر إضافي، أي: إنَّما يصدق بها ويؤمن إيمانًا حقيقيًا، وينتفع بها، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهذا تأييس للنَّبيِّ ﷺ من إيمانهم، و تسليةٌ له ﷺ، وتعريضٌ بهم بأنّهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم، ولا يغيظونهم بالتَّصلب في الكفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المراد بالآيات هنا: آيات القرآن، بقرينة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ بتشديد الكاف، أي: أُعيد ذِكْرُها عليهم، وتكرَّرت تلاوتها علىٰ مسامعهم فتُليتُ عليهم، وأتتهم هداياته، ودُعُوا إلىٰ التَّذكُّر؛ وُعِظوا بها، واستمعوا لها، وأطاعوها قولًا وفعلًا، لا كغيرهم ممّن يُذكَّر بها، فلا يتَّعظ بها، ولا يؤمن بها.

﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ الخُرُور: الهُوِي من علو إلىٰ سفل، ﴿سُجَّدًا﴾ المراد به: حقيقة السُّجود، وعليه أكثر العلماء، فوضعوا جباههم علىٰ الأرض إرادة التَّذلُّل والتَّعظيم لله، والخضوع والإقرار بالعبودية له تعالىٰ، وانتصب ﴿سُجَّدًا﴾ علىٰ الحال المبيّنة للقصد من ﴿خَرُّوا۟﴾، أي: سقطوا علىٰ وجوههم ساجدين، خاضعين لها، تعظيمًا وخوفًا من عذاب الله، وفرح بمعرفته، وشكرا له علىٰ ما حباهم به من العلم والإيمان كما دل عليه قرنه بقوله: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الباء فيه للملابسة، أي: نزَّهوه عن كلِّ ما لا يليق به ملتبسين بحمده علىٰ نعمه، التي أجلها وأكملها الهداية إلىٰ الإيمان، والمعنىٰ: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو سبحان ربي الأعلىٰ وبحمده؛ يخلطوا التَّنزيه بالحمد، وفي الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ، اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ[(١)].

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم خاضعين لله، متذلِّلين له، غير مستكبرين عليه، والمعنى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن عبادة الله -تعالى- بقلوبهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعين لها، قد تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصَّلوا بها إلى مرضاة الرَّبِّ الرَّحيم، واهتدوا بها إلى الصِّراط المستقيم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن عبادة الله تعالى بأبدانهم، فيمتنعوا عن السُّجود له، كما يفعله الجَهَلة من الكَفَرة الفَجَرة، وقد ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر](١).

وتُجَلِّي الآيةُ الكريمةُ أثرَ سجود المؤمنين في تعظيم الله -تعالى- من عدة جوانب، هي:

١- أثنى -تعالى- على المؤمنين في وصفهم بالصِّفة الحُسنى من سجودهم عند التذكير، وتسبيحهم وعدم استكبارهم، وحالهم فيها، وعند سماعها، يقابلونها بالقبول، والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانًا سامعةً وقلوبًا واعية؛ فيزداد بها إيمانهم، ويتمّ بها إيقانهم، وتُحْدِث لهم نشاطًا، ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عن التَّذكير، وقول الهجر، وإظهار التَّكبُر، والإعراض عنها، والصَّمَم عن سماعها، وصرف النَّظر والقلوب عنها، فأشارت الآيةُ الكريمةُ إلى حال كاملي الإيمان، وعلو شأن السُّجود والتسبيح والتحميد والتواضع لعظمته عزَّ وجلَّ(٢).

٢- مفاد ﴿إِنَّمَا﴾ قصر إضافي، أي: يؤمن بآيات الله الذين إذا ذُكِّروا بها تذكيرًا بما سبق لهم سماعه، لم يَتَريثوا عن إظهار الخضوع لله، ولم يَتَردّدوا ولم يتلعثموا، فضلًا عن التَّسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد، أي: سقطوا ساجدين تواضعًا لله -تعالى- وخشوعًا وخوفًا من عذابه -عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٦٠٧)، وتفسير البغوي (٦/ ٣٠٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٩٩)، والبحر المحيط (٨/ ٤٣٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٣)، وتفسير الشوكاني (٦/ ٧)، وتفسير السَّعدي (٦٥٥)، وتفسير ابن عاشور (١٢/ ١٥٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٨/ ٤٣٦)، وتفسير الآلوسي (١١/ ١٣٩)، وتفسير السعدي (٥٨٧).

(٣) ينظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٢٨)، وتفسير ابن عاشور (١٢/ ١٥٩).

٣- أوثرت صيغة المضارع في ﴿يُؤْمِنُ﴾ لما تُشْعِر به من أنّهم يَتَجَدَّدُون في الإيمان، ويزدادون يقينًا، وإلَّا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضىٰ، ففعل المضي آثر بحكاية حالهم لولا هذه الخصوصية[1].

٤- عرفوا الموصولية والصِلة الدَّال معناها علىٰ أنّهم راسخون في الإيمان؛ فعبّر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها علىٰ أسماعهم بالتَّذكير المقتضي أنَّ ما تتضمنه الآيات حقائقُ مقرَّرة عندهم، لا يفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم، ولكنها تُكْسبهم تذكيرًا ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]، وهذه الصفة التي تضمنتها الصِّلة هي حالهم التي عُرِفوا بها لقوَّة إيمانهم، وتميَّزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أنَّ من لم يسجدوا عند سماع الآيات ولم يسبِّحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممّن يؤمنون، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان، وهي حالة المؤمنين مع النَّبيِّ ﷺ يومئذ عُرِفوا بها[2].

٥- دلَّت الجملة الشَّرطية علىٰ اتصال تعلَّق حصول الجواب بحصول الشَّرط وتلازمهما، وجيء في نفي التَّكبُّر عنهم بالمسند الفعلي لإفادة اختصاصهم بذلك، أي دون المشركين الذين كان الكِبْر خلقهم، فهم لا يرضون لأنفسهم بالانقياد للنَّبيِّ ﷺ منهم[3].

٦- قوله تعالىٰ: ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ونزَّهوه -تعالىٰ- عند ذلك عن كلِّ ما لا يليق به -سبحانه- من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث، ملتبسين بحمده -تعالىٰ- علىٰ نعمائه -جلّ وعلا- التي من أجلِّها الهدايةُ بإيتاء الآيات، والتَّوفيق إلىٰ الاهتداء بها؛ فالحمد في مقابلة النِّعمة، والباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال، والتَّعرض لعنوان الرُّبوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلىٰ ضميرهم للإشعار بعِلَّة التَّسبيح والتَّحميد؛ نهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالىٰ لهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يصرُّ مستكبرًا كأن لم يسمع الآيات[4].

---

(١) تفسير ابن عاشور (١٢/ ١٥٩).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير الآلوسي (١١/ ١٢٨).

٧- قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ هذه السجدة من عزائم سجود القرآن، رجاء أن يكون التالي من أولئك الذين أثنىٰ الله عليهم بأنهم إذا ذكروا بآيات الله سجدوا، فالقارئ يقتدي بهم[١].

المطلب الخامس: سجود عموم المخلوقات وأثره في تعظيم الله تعالى

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

يخبر -تعالىٰ- عن عظمته وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كلُّ شيءٍ؛ فإنَّ امتناع مَن يدَّعون من دون الله من الأوثان والأصنام، من إفراد الطَّاعة والإخلاص بالعبادة لله -تعالىٰ- فإنَّه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ فجميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلُّها خاضعة لربِّها، تسجد له.

وقوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ نصبًا علىٰ الحال، والطَّوع لمن يأتي بالسُّجود والخضوع اختيارًا كالملائكة الكرام والمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربِّه، وحاله وفطرته تكذِّبه في ذلك؛ كالمنافقين خوفًا من السَّيف، والكافرين حالة الاضطرار، وهو المعنىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿وَكَرْهًا﴾ فيخصُّون السُّجود له -سبحانه- كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿وَظِلَالُهُم﴾ الظِّلّ مصدرٌ في الأصل، ثمّ أطلق علىٰ الخيال الذي يظهر للجِرم، وطوله بسبب انحطاط الشَّمس، وقِصَره بسبب ارتفاعها، وقوله: ﴿وَظِلَالُهُم﴾ يجوز أن يكون معطوفًا علىٰ ﴿مَن﴾، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء والخبر محذوفٌ، والتقدير: وظلالهم سَجَد بالغدو والآصال.

قوله: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي: البُكْر، ﴿وَالْآصَالِ ۩﴾ جمع الأُصُل، و الأُصُل جمع الأصيل، وهو آخر النَّهار، ما بين العصر إلىٰ غروب الشَّمس، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾: ظرف للسُّجود المقدَّر، والباء بمعنىٰ (في).

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٨/ ٤٣٦)، وتفسير ابن عاشور (١٢/ ١٥٩).

وخُصِّص الغدو والآصال بالذِّكر؛ لأنَّ الظِّلال إنَّما تَعْظُم وتَكْثُر وتُمْدَد وتَقْلُص في ذَينك الوقتين أظهر ما يكون، ولاستيعاب أجزاء أزمنة الظِّلِّ، ولإرادة الدَّوام لأنه يُذكر مثلٌ للتَّأبيد.

والمعني: ظلال السَّاجدين طوعًا وكَرهًا تسجد لله -عزَّ وجلَّ- بالغُدُوّ أو العشي. وسجود كلّ شيء بحسب حاله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فإذا كانت المخلوقات كلّها تسجد لربِّها طوعًا وكرهًا؛ كان هو الإله حقًّا المعبود المحمود حقًّا، وإلهية غيره باطلة(١).

وتُجَلِّي الآيةُ الكريمةُ أثرَ سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ- من عِدَّة جوانبَ، هي:

١- العموم المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿مَن﴾ الموصولة عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة؛ فتحقيقَ انقيادِ الكلّ له -تعالىٰ- أَدْخَلُ في التَّوبيخ علىٰ اتِّخاذ أولياءَ من دونه من تحقيق سجودِهم له -تعالىٰ- ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله -تعالىٰ-(٢).

٢- إذا كان من النَّاس مَن يأبىٰ السُّجود لله، أو يتركه اشتغالًا عنه بالسُّجود للأصنام؛ فقد جعل الله مثاله شاهدًا علىٰ استحقاق الله السُّجود له تعالىٰ، ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله تعالىٰ(٣).

٣- لو جعل الله الشَّمسَ شمسَين متقابلتين علىٰ السَّواء لانعدمت الظِّلال، ولو جعل وجه الأرض شفافًا أو لامعًا كالماء لم يظهر الظِّلّ بيِّنًا؛ فهذا من دلائل الصَّنعة التي أوجدها الله، وأدقّها دقة بديعة ممّا ينبِّه لدقَّة الصُّنع الإلهي كيف جاء علىٰ نظام مُطَّرِد دالٌ بعضُه علىٰ بعض كما قيل:

وفي كُلِّ شَــيءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلَـىٰ أَنَّـهُ الـوَاحِـدُ

ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله تعالىٰ(٤).

٤- ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله -تعالىٰ- اليقين بانفراد الله تعالىٰ بالإلهية، وحاجة المخلوقات إليه تعالىٰ، وجعل أكثرها من نوع الإنسان لأنَّ نوعه مختصٌّ بالكفران دون الحيوان(٥).

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ٤٩١)، وتفسير البغوي (٤/ ٣٠٦)، تفسير الرَّازي (١٩/ ٢٥)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٠١)، والبحر المحيط (٦/ ٣٦٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٦)، وتفسير الآلوسي (٧/ ١١٩)، وتفسير السعدي (٤١٥).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٤٩١)، وتفسير ابن عاشور (١٢/ ١٦١).

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٢/ ١٦١).

(٤) المصدر السّابق نفسه.

(٥) المصدر السّابق نفسه.

٥- ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله -تعالىٰ- الاستدلال علىٰ أنَّ الأشياء تسجد لله؛ لأنَّ ظلالها واقعة علىٰ الأرض في كلِّ مكان، وما هي مساجد للأصنام، وأنَّ الأصنام لها أمكنة معينة هي حماها، وأكثر الأصنام في البيوت، مثل: العُزَّىٰ وذي الخَلَصة وذي الكعبات، حيثُ تنعدم الظِّلال في البيوت(١).

٦- هذه الآية موضع سجود من سجود القرآن، ومن حكمة السُّجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد مَن يسجد لله طوعًا بإيقاعه السُّجود، وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله -تعالىٰ- ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله تعالىٰ(٢).

٧- تخصيص انقياد العقلاء مع كون غيرهم أيضًا كذلك؛ لأنَّهم العمدة، وانقيادهم دليلُ انقياد غيرهم، ممَّا يُؤثِّر في تعظيم الله تعالىٰ(٣).

قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل].

يخبر -تعالىٰ- عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كلُّ شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومُكلَّفوها من الإنس والجنِّ والملائكة(٤)، فأخبر أنَّ كلَّ ما له ظِلٌّ يُتفيأ ذات اليمين وذات الشَّمال، أي: بُكْرةً وعَشيًّا، فإنَّه ساجدٌ بظِلِّه لله تعالىٰ.

قرأ حمزةُ والكِسائيُّ وخلف ويحيىٰ والأعمش ﴿تَرَوْا﴾ بالتَّاء، علىٰ أنَّ الخطاب لجميع النَّاس، وقرأ الباقون(٥): ﴿يَرَوْا﴾ بالياء خبرًا عن الذين يمكرون السِّيئات، ويحتمل خبرًا عن المُكَلَّفين، والأوَّل أظهر لتقدم ذكرهم(٦).

---

(١) المصدر السّابق نفسه.

(٢) المصدر السّابق نفسه.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٤٩١)، وتفسير الآلوسي (٧/ ١١٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (٣٥١). وينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩)، وتفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩)، وتفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الاستفهام يجوز أن يكون معناه: التَّوبيخ، ويجوز أن يكون معناه التَّعجب، والتَّقدير: تعجبوا من اتِّخاذهم مع الله شريكًا، وقد رَأوا هذه المصنوعات التي أظهرت عجائبَ قدرته وغرائبَ صنعه، مع علمهم بأنَّ آلهتهم التي اتَّخذوها شركاء لا تقدر منها علىٰ شيءٍ البتة، والرُّؤية هنا رؤيةُ القلب التي يقع بها الاعتبار، ولكنَّها بواسطة رؤية العين، وقيل: بصرية[١].

والمعنىٰ: أوَ لم ير هؤلاء الذين مكروا السِّيئات إلىٰ ما خلق الله من جسم قائم: شجر أو جبل أو غير ذلك، وإن كانت الأشياء كلَّها سميعةً مطيعةً لله تعالىٰ.

قوله: ﴿تَتَفَيَّأُ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتَّاء لتأنيث الظِّلال، وقرأ الباقون ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ بالياء[٢].

وقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ يَتفعَّل من الفَيء، والفَيءُ الرَّجوع، ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجُرات: ٩][٣]، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء؛ لأنه فاء من المغرب إلىٰ المشرق، أي رجع.[٤]

وقوله: ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ أضاف الظِّلال، وهي جمع إلىٰ ضمير مفرد؛ لأنَّه ضمير ﴿مَا﴾، وهو جمعٌ من حيثُ المعنىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزُّخرُف][٥].

وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، قال قتادةُ والضَّحاك: اليمين: أوَّل النَّهار، والشِّمال: آخر النَّهار.

ووحد ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ وجمع ﴿ٱلشَّمَآئِلِ﴾؛ لأنَّ من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة كقوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧]، ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقيل: ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ يرجع إلىٰ قوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، ولفظ: ﴿مَا﴾ واحد، ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: يرجع إلىٰ المعنىٰ، وقيل:

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (٣٥١)، وينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩)، وتفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٣) ينظر: تفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٤) المصادر نفسها.

(٥) ينظر: تفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥).

وحَّد ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ والمراد الجمع، ولكنَّه اقتصر في اللّفظ على الواحد، كقوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر]، وقيل: إذا فُسِّر ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ بالمشرق كانت النُّقطة التي هي مشرق الشَّمس واحدة بعينها، فكانت اليمين واحدة، وأمَّا ﴿الشَّمَآئِلِ﴾؛ فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الأظلال بعد وقوعها على الأرض وهي كثيرة؛ فلذلك ذكرها الله تعالى بصيغة الجمع، وقيل: أفرد ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾؛ لأنَّ المراد به جنس الجهة كما يقال المشرق، وجمع ﴿الشَّمَآئِلِ﴾ مرادًا به تعدد جنس جهة الشَّمال بتعدد أصحابها، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج]؛ فالمخالفة بالإفراد والجمع تفنن، وقيل: أفرد وجمع بالنَّظر إلى الغَايتين؛ لأنَّ ظِلَّ الغداة يضمحل، حتى لا يبقى منه إلَّا اليسير؛ فكأنَّه في جهة واحدة، وهو بالعَشي على العكس لاستيلائه على جميع الجهات، فلحظت الغايتان في الآية، هذا من جهة المعنى، وفيه من جهة اللَّفظ المطابقة؛ لأنَّ ﴿سُجَّدًا﴾ جمع فطابقه جمع ﴿الشَّمَآئِلِ﴾ لاتِّصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللَّفظ للمعنى، ولحظهما معًا، وتلك الغاية في الإعجاز، والله أعلم[1].

واختلف في معنى قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ ﴿سُجَّدًا لِلّٰهِ﴾:

فقال بعضهم: ظِلُّ كلِّ شيء سجودهُ، قال مجاهد: إذا زالت الشَّمس سَجَد كلُّ شيء لله -عزَّ وجلَّ-، وكذا قال قتادة والضَّحاك، وغيرهم.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ كلا ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ في حال سجودها، قالوا: وسجود الأشياء غير ظلالها، بل الذي وصف الله بالسجود في هذه الآية ظلال الأشياء، فالذي يسجد ظلالها دون التي لها الظلال.

وقيل: سجود الجمادات وما لا يعقل: ظهور أثر الصنع فيه، على معنى أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمل والتدبر فيه، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]، وهذا عامٌّ في كلِّ جسم.

وقيل: السُّجود: الطَّاعة، والأشياء كلُّها مطيعة لله -عزَّ وجلَّ- من حيوان وجماد، ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٢)، وتفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

قال ابن جرير: وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصَّواب أن يقال: إنَّ الله أخبر في هذه الآية أنَّ ظِلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: ميلانها ودورانها من جانب إلىٰ جانب، ومن ناحية إلىٰ ناحية، كما قال ابن عبَّاس(١).

وقوله تعالىٰ ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ الدُّخور: الصَّغَار والذُّلّ، يقال: دَخَر الرَّجلُ -بالفتح-؛ فهو داخِرٌ، وادَّخره اللهُ: إذا ذَلَّ لله، وخضع، أي: خاضعون صاغرون(٢).

ولمَّا ذكر الله تعالىٰ في الآية السَّابقة السُّجود القَسري ذكر بعده هنا سجودًا آخرَ، بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقديم المجرور علىٰ فعله مُؤْذِنٌ بالحصر، أي: يسجد لله لا لغيره ما في السَّموات وما في الأرض، وهو تعريضٌ بالمشركين؛ إذ يسجدون للأصنام(٣).

وأوثرت ﴿مَا﴾ الموصولة دون (مَن) تغليبًا لكثرة غير العقلاء علىٰ العقلاء في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المُذَكَّر علىٰ المؤنث(٤).

ويشمل ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسَّموات: الأجواء، فيراد بما فيها الطُّيور والفراش(٥).

وقوله تعالىٰ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أراد من كلّ حيوان يَدِبُّ عليها، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعنىٰ: الملائكة الذين في الأرض، وإنَّما أفردهم بالذِكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، ورفعًا لشأنهم، وكثرةَ عبادتهم؛ فميَّزهم من صفة الدَّبيب بالذِّكر وإن دخلوا فيها ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾[الرحمن].

وقيل: لخروجهم من جملة ما يَدِبُّ لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة؛ فلذلك ذُكِروا.

وقيل: أراد ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الملائكة والشَّمس والقمر والنُّجوم والرِّياح والسَّحاب، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾ وتسجد ملائكة الأرض.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٣٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٢)، وتفسير الرَّازي (٢٠/ ٢١٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١١١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥)، وتفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٣) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٤) المصدر السّابق نفسه.

(٥) ينظر: المصدر السّابق نفسه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩﴾ أي: عن عبادته والتَّذلُّل له بالطَّاعة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ [النساء]، وقوله ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»[(١)]، بخلاف الكافرين الذين وصفهم الله تعالىٰ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٢٢﴾ [النحل]؛ فلما مدحهم الله -تعالىٰ- بذلك، مدحهم أيضًا بالخوف منه -عزَّ وجلَّ- الذي هو فوقهم بالذَّات والقهر وكمال الأوصاف، فهم أذِلَّاء تحت قهره، فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾.

والضمير في قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾: عائدٌ علىٰ المنسوب إليهم السُّجود في ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾، وقيل: ﴿يَخَافُونَ﴾ من صفة الملائكة خاصَّة، فيعود الضَّمير عليهم؛ لأنَّهم قادرون علىٰ العصيان وإن كانوا لا يعصون[(٢)].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ إثبات صفة العُلُوِّ لله -تعالىٰ- بلا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف، كما وصف بها نفسَه، قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وهذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١].[(٣)]

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩﴾ أي: ويفعلون ما أمرهم الله به؛ فيؤدُّون حقوقه، ويجتنبون سخطه، مهما أمرهم الله تعالىٰ امتثلوا لأمره؛ أما الملائكة والمؤمنون فبحسب الشرع والطاعة، وأما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلىٰ ما نفذ من أمر الله تعالىٰ.[(٤)]

وتُجَلِّي الآيةُ الكريمةُ أثرَ سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ- من عِدَّة جوانبَ، هي:

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وأحمد (٢١٥٥٥)، وقال الأرنؤوط: «حسن لغيره». وينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٢).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٥٣٥).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٢)، وتفسير السمعاني (٣/ ١٧٧)، وتفسير السعدي (٤٤٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٥)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٢)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١١٢)، والبحر المحيط (٦/ ٥٣٥)، وتفسير السعدي (٤٤٢).

١- سجود المخلوقات لله -تعالىٰ- قسمان: سجود اضطرار ودلالة علىٰ ما له من صفات الكمال، وهذا عامٌّ لكلِّ مخلوق من مؤمن وكافر، وبرٍّ وفاجر، وحيوان ناطق وغيره. وسجود اختيار يختصّ بأولياء الله -تعالىٰ- وعباده المؤمنين من الملائكة والأنس والجنِّ، فالجمادات بأسرها منقادة لله تعالىٰ، والحيوانات بأسرها منقادة لله تعالىٰ، أخسُّها الدَّواب وأشرفها الملائكة، كلّها منقادة خاضعة لله تعالىٰ، وهذا يورث تعظيم الله تعالىٰ[١].

٢- ممَّا يبيِّن أثرَ سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ-: التَّفكُّر في الوقت المذكور في الآية، وهو قبل الزَّوال وبعده؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسُ، فَلَا تُرْتَجُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ الظُّهْرُ، فَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا خَيْرٌ»[٢]، وعن عبد الله بن السَّائب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ يُصلِّي قبل الظهر بعد الزَّوال أربعًا، ويقول: «إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ؛ فَأُحِبُّ أَنْ أُقَدِّمَ فِيهَا عَمَلًا صَالِحًا»[٣]، وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرْبَعٌ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الزَّوَالِ قَبْلَ الظُّهْرِ يَعْدِلنَ بصَلاَةِ السَّحَرِ»، قَالَ: وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ اللهَ تِلْكَ السَّاعَةَ»[٤]، قال ابن القيم: «وسِرُّ هذا والله أعلم أن انتصافَ النهار مقابِل لانتصاف الليل، وأبوابُ السماء تُفتح بعد زوال الشمس، ويحصلُ النزول الإلهي بعد انتصاف الليل، فهما وقتا قرب ورحمة، هذا تُفتح فيه أبوابُ السماء، وهذا ينزِل فيه الربُّ تبارك وتعالىٰ إلىٰ سماء الدنيا»[٥].

٣- ممَّا يبيِّن أثرَ سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ-: تخصيص الظِلِّ بالذِّكر؛ لأنَّه سريع التَّغير، والتَّغير يقتضي مُغَيِّرًا غيره، ومُدَبِّرًا له، ولمَّا كان سجود الظِّلال في غاية الظُّهور؛ بدئ به، ثمّ انتقل إلىٰ سجود ما في السَّموات والأرض[٦].

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٠/ ٢١٣)، وتفسير السعدي (٤٤٢).
(٢) رواه أحمد (٢٣٥٧٩)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».
(٣) رواه الترمذي (٤٧٨)، وأحمد (١٥٤٣٣)، وصححه الألبانيّ والأرنؤوط.
(٤) رواه البيهقي في (شعب الإيمان: ٢٨٠٨).
(٥) زاد المعاد (١/ ٣٠٩).
(٦) البحر المحيط (٦/ ٥٣٥).

٤- ممَّا يبيِّن أثر سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ-: ما بين المُكَلَّفين وغيرهم من القدر المشترك في السُّجود، وهو: الانقياد لإرادة الله؛ فلذا جمع بينهما فيه، وإن اختلفا في كيفية السُّجود.

٥- في ذكر أشرف المخلوقات وأقلِّها= تعريضٌ بذمٍّ من نزل من البشر عن مرتبة الدَّوابِّ في كفران الخالق، وبمدح من شابه من البشر حالُ الملائكة؛ فلنتشبه بمن مدحهم الله تعالىٰ، وهذا يورث تعظيم الله تعالىٰ(١).

٦- وفي صف الملائكة بأنَّهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تعريض ببُعد المشركين عن أوج تلك المرتبة الملائكية؛ وهذا يورث تعظيم الله تعالىٰ(٢).

٧- هنا موضع سجودٍ للقارئ بالاتِّفاق، وحكمته إظهار المؤمن أنَّه من الفريق الممدوح بأنَّه مشابهٌ للملائكة في السُّجود لله تعالىٰ؛ وهذا يورث تعظيم الله تعالىٰ(٣).

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

يخبر -تعالىٰ- أنَّه المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له؛ فإنَّه يسجد لعظمته كلَّ شيء طوعًا وكرهًا. وسُجود كلِّ شيء ممَّا يختصُّ به كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل]، وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ الآية.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرُّؤية هنا هي القلبية لا البصرية، والمعنىٰ: ألم تعلم.

والخطاب لكلِّ مَن يصلح له، وهو مَن تتأتىٰ منه الرُّؤية، والاستفهام إنكاري؛ أنكر علىٰ المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات علىٰ تفرُّد الله بالإلهية.

ويجوز أن يكون الخطاب للنَّبيِّ ﷺ والاستفهام تقريريًّا؛ لأنَّ حصول علم النَّبيِّ ﷺ بذلك معلوم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور (١٣/ ١٣٥).

(٢) المصدر السّابق نفسه.

(٣) المصدر السّابق نفسه.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن﴾ فـ ﴿مَن﴾ إمَّا خاصَّة بالعقلاء، وإمَّا عامَّة لهم ولغيرهم بطريق التَّغليب وهو الأولىٰ؛ لأنَّه الأنسب بالمقام، لإفادته شمول الحكم لكلِّ ما فيهما بطريق القرار فيهما، أو بطريق الجزئية منهما[١].

وقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السَّموات، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجنِّ والدَّواب والطَّير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ معطوفة علىٰ ﴿مَن﴾ وكذا ﴿وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وذكر: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ علىٰ التَّنصيص لشهرتها، ولأنَّها عُبِدَت من دون الله -تعالىٰ- إمَّا باعتبار شخصها أو جنسها[٢]؛ فبيَّن -تعالىٰ- أنّها تسجد لخالقها، وأنّها مربوبة مُسَخَّرة ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[فصّلت: ٣٧]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟». قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ؛ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ؛ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ فَذَلِكَ قَالَ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس]»[٣]، وقال أبو العالية: ما في السَّماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلَّا يقع لله ساجدًا حين يَغيب، ثمَّ لا ينصرف حتىٰ يُؤذَن له، فيأخذ ذات اليمين حتىٰ يرجع إلىٰ مطلعه.

والجبال والشَّجر سجودهما بفَيء ظلالهما عن اليمين والشَّمائل، قال مجاهد: «سجودها تَحوُّل ظلالها».

وقوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ يشمل الحيوانات كلها.

---

(١) ينظر: تفسير الآلوسي (٩/ ١٢٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) رواه البخاري (٣١٩٩).

ويلاحظ هنا أنَّه -تعالىٰ- أسند السُّجود أوَّلًا لـ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿مَن﴾ للعقلاء أي: الملائكة والإنس والجنِّ، ثمّ عطف علىٰ العقلاء غير العقلاء بأسمائهنَّ من الشَّمس والقمر والنُّجوم والجبال والشَّجر والدَّواب؛ فهذا شمولٌ لم يبقَ كائنٌ من الكائنات، ولا ذرَّة في فلاة إلَّا شمله، وجاء السُّجود مسندًا لهذه العوالم، وأخبر الله -تعالىٰ- أنَّ لهذه العوالم كلِّها إدراكًا تامًّا كإدراك الإنسان أو أشدّ منه، قال تعالىٰ عن السَّموات والأرض والجبال: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]؛ فأثبت -تعالىٰ- لهذه العوالم إدراكًا وإشفاقًا من تَحمُّل الأمانة، بينما سجَّل علىٰ الإنسان ظلمًا وجهالة في تَحمُّله إيَّاها، ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير، ولا هذا الإباء مجرد سَلبية، بل عن إدراكٌ تامٌّ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلت]، فهما طائعتان لله، وهما يأبين أن يحملن الأمانة إشفاقًا منها، قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]، ومثله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة]، وهذا عين الإدراك، وأشدّ من إدراك الإنسان، وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَسْمَعُ مَدَىٰ صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)؛ فبم سيشهد إن لم يكُ مُدْرِكًا الأذان والمؤذن(٢).

وقيل: سجودها بمعنىٰ الطَّاعة؛ فإنَّه ما من جماد إلَّا وهو مطيعٌ لله، خاشع له، مسبِّحٌ له كما أخبر الله تعالىٰ، قال البغويُّ: وهذا مذهبٌ حسنٌ موافقٌ لقول أهل السُّنَّة(٣).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يسجد لله طوعًا مختارًا متعبِّدًا بذلك؛ يعني: المسلمين. والسُّجود المثبت لكثير من الناس هو السُّجود الحقيقي، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس، لا لجميعهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩).

(٢) ينظر: أضواء البيان (٨/ ٦).

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٣٧١).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ والمعنىٰ: وَجَب وكَتَب عليه؛ لأنَّه امتنع وأبىٰ واستكبر، وهم الكفَّار لكفرهم وتركهم السُّجود، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله -عزَّ وجلَّ-، والواو للاستئناف.

قوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهنه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: من يُذِلَّه الله فلا يكرمه أحدٌ، وإهانة الله لهم باستحقاق العذاب؛ فلا يجدون مَن يكرمهم بالنَّصر أو بالشَّفاعة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ أي: يُكرم ويُهين؛ فالسَّعادة والشَّقاوة بإرادته ومشيئته، فلا رادَّ لما أراد، ولا معارض لمشيئته -سبحانه- وبحمده؛ فالخلق خلقُه، والأمر أمرُه، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء][1].

وتُجَلِّي الآيةُ الكريمةُ أثرَ سجود المخلوقات في تعظيم الله -تعالىٰ- من عدَّة جوانب، هي:

١- عموم الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكلِّ مَن يصلح له، ممَّن تتأتىٰ منه الرُّؤية، وأسلوب الاستفهام الإنكاري علىٰ المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات علىٰ تفرّد الله بالإلهية، وعلىٰ القول بأنَّ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ وأسلوب الاستفهام تقريريٌّ؛ لحصول علم النَّبيِّ ﷺ بذلك؛ فإنَّ هذا ممَّا يُورث تعظيم الله تعالىٰ.

٢- إذا كانت المخلوقات كلّها ساجدة لربِّها، خاضعة لعظمته، مستكينة لعِزَّته وسلطانه= دلَّ علىٰ أنَّه وحده الرَّب المعبود، والملك المحمود، وأنَّ من عدل عنه إلىٰ عبادة سواه؛ فإنَّ عبادته باطلة، وضلَّ ضلالًا بعيدًا، وخَسِر خُسرانا مبينًا، وهذا ممَّا يُورِث تعظيم الله تعالىٰ[2].

٣- المراد بالسُّجود في حقِّ الأحياء العقلاء العبادة، وفي حقِّ الجمادات الانقياد؛ فالله تعالىٰ تكلَّم بهذه اللَّفظة مرَّتين، فعنىٰ بها في حقِّ العقلاء: الطَّاعة، وفي حقِّ الجمادات: الانقياد، سواء جعلت كلمة ﴿مَن﴾ خاصَّة بالعقلاء، أو عامَّة لهم ولغيرهم، ولهذا عطف ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ علىٰ ﴿مَن﴾[3].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٧)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٣)، وتفسير الشوكاني (٥/ ١٠٣)، وتفسير الآلوسي (٩/ ١٢٥)، وتفسير السعدي (٥٣٦)، وتفسير ابن عاشور (١٧/ ١٦٣).

(٢) تفسير السّعدي (٥٣٦)، وتفسير ابن عاشور (١٧/ ١٦٣).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٣)، وتفسير الشوكاني (٥/ ١٠٣).

٤- دلالة حال الإنسان علىٰ عبوديته لله -تعالىٰ- لما خالطها إعراضٌ كثيرٌ من النَّاس عن السُّجود لله تعالىٰ، وتَلَبُّسهم بالسُّجود للأصنام كما هو حال المشركين، لم يُثْبِتْ لهم السُّجود الذي أثبته لبقيَّة الموجودات، وإن كان حاصلًا في حالهم كحال المخلوقات الأخرىٰ، فليكن المؤمن يعظِّم الله -تعالىٰ- ويسجد له تعالىٰ طواعية، ولذا؛ فإنَّ هذا موضعُ سجودٍ من سجود القرآن باتِّفاق الفقهاء[1].

(١) تفسير ابن عاشور (١٧/ ١٦٣).

الخاتمة

في ختام هذا البحث أذكر أهمّ ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات:

أولًا: أهم النتائج:

١- أنَّ عدد سجدات التلاوة في القرآن الكريم خمسة عشرة سجدة؛ وذلك حسب ما ترجح من خلال دراسة الأقوال وأدلتها.

٢- أنَّ آيات السجدات كلها في سور مكية؛ مما يدل علىٰ أن الأمر بالسجود لله كان منذ بداية الدعوة؛ لإظهار وترسيخ عظمة الله تعالىٰ في القلوب، وأنه تعالىٰ هو المستحق للسجود دون غيره.

٣- سياق الآيات ونظمها وقوة ألفاظها كان له أثره البالغ في تعظيم أمر الله تعالىٰ في قلوب الجميع، حتىٰ المشركين الذين بادروا للسجود مع المسلمين في بعض الأحيان حين سماعهم للنَّبيِّ ﷺ يقرأ آيات فيها سجود التلاوة.

٤- أنَّ للسجود أحكامًا وآدابًا ينبغي الاعتناء والقيام بها؛ حتىٰ يكون للسُّجود أثرٌ علىٰ السَّاجد.

٥- مدح الله تعالىٰ وثنائه علىٰ الساجدين من الملائكة عليهم السلام والأنبياء والمرسلين -عليهم الصَّلاة والسَّلام- وأولي العلم والمؤمنين.

٦- سجود عموم المخلوقات لله تعالىٰ، إلا من حقّ عليه العذاب من كافري الإنس والجن.

٧- استخراج اللطائف والهدايات القرآنية لها أثرها في الترجيح بين الأقوال التفسيرية؛ فالدراسة المبنية علىٰ التتبع والاستقراء تعطي الباحث ملكة في معرفة وسبر الأقوال والربط بينها، وتحقيق الرَّاجح منها.

ثانيا: أهم التوصيات:

بناءً علىٰ ما تمَّ التوصل إليه من نتائج؛ فأوصي بما يلي:

١- دراسة المواضيع المتعلقة بهدايات القرآن الكريم في العبادات لها أهميتها الكبرىٰ؛ لأثرها في فهم القرآن الكريم فهمًا سليمًا؛ فحبذا لو انبرىٰ بعض الباحثين لبيان وإبراز الهدايات القرآنية من خلالها.

٢- إجراء بحوث ودراسات بهدف تعميق روح الهداية والاستقامة في القلوب، وتنمية الجوانب الروحية والعقلية والاجتماعية والعاطفية والثقافية لدىٰ الناس عموما والمسلمين خصوصا من خلال الهدايات القرآنية.

٣- صياغة خطة محكمة لاستخدام برامج النشر الحاسوبي لنشر الهدايات القرآنية علىٰ الأجهزة الذكية والحواسيب الكفية والشبكة العنكبوتية.

ختم الله لنا ونحن سجودٌ بين يديه، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ سيِّدنا محمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع: للقاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو محمد الشاطبي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبع.

٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لأحمد بن محمد الدمياطي البناء، تحقيق: أنس مهرة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٤ - أحكام السجود في الفقه الإسلامي: لصالح بن عبد العزيز الغليقة، طبعة دار كنوز أشبيليا، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م.

٥ - أحكام القرآن: للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٦ - إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود: لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفىٰ العمادي الحنفي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٧ - أسباب النزول: لأبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٨ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، بدون رقم الطبعة، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

٩ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر.، تحقيق: طه عبد الروؤف سعد، دار الجيل، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٩٧٣م.

١٠ - الاقناع في حل ألفاظ أبي شجاع: لشمس الدين محمد بن أحمد الشربينىٰ الخطيب القاهرىٰ الشافعي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

١١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي: عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي، حققه عبد القادر عرفات، طبعة دار الفكر، بدون رقم طبعة، بيروت،١٤٢٥ هـ.

١٢ - البحر الرائق شرح كنز الدقائق: لزين الدين بن إبراهيم بن نجيم، المعروف بابن نجيم المصري، الناشر: دار المعرفة، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

١٣ - البحر المحيط: لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ.

١٤ - البداية والنهاية: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، حققه ودقق اصوله وعلق حواشيه: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بدون بلد الطبع، الطبعة الاولىٰ، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م.

١٥ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لأبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني علاء الدين، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

١٦ - البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير: لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، تحقيق: مصطفىٰ أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض- السعودية، الطبعة الاولىٰ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٧ - التاج والإكليل لمختصر خليل: لأبي عبد الله محمد بن يوسف العبد ري الشهير بالمواق، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

١٨ - التبيان في آداب حملة القرآن: للإمام أبي زكريا بن شرف النووي ، تحقيق: محمد الحجار، الناشر دار ابن حزم، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

١٩ - التبيان في سجدات القرآن: لعبد العزيز بن محمد السدحان، طبعة دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٢٠ - تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٢١ - التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: لمحمد الطاهر ابن عاشور، الناشر مؤسسة التاريخ العربي، بدون بلد الطبع، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٢ - التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الأولىٰ، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٢٣ - تفسير القرآن: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، بدون رقم طبعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٤ - تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، بدون بلد الطبع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٥ - التفسير القيم لابن القيم، جمع وترتيب: محمد أويس الندوي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٢٦ - التفسير الكبير المعروف بتفسير الرازي: محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢٧ - تفسير آيات الأحكام: لمحمد علي السايس، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، ٠١/ ١٠/ ٢٠٠٢.

٢٨ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بدون بلد الطبع، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ-١٩٨٩م.

٢٩ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفىٰ بن أحمد العلوىٰ ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر: مؤسسة قرطبة، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٣٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المعروف بتفسير السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة مؤسسة الرسالة، بدون بلد الطبع، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.

٣١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مطبعة دار هجر، الجيزة. مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٣٢ - الجامع الصحيح المسمىٰ صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج، الناشر: دار الجيل، بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٣٣ - الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه والمعروف بصحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حسب ترقيم فتح الباري، الناشر: دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

٣٤ - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، طبعة دار عالم الكتب، بدون رقم طبعة، الرياض، ١٤٢٣ هـ.

٣٥ - الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٣٦ - الحاوي الكبير الحاويٰ الكبير: لأبي الحسن الماوردي، الناشر: دار الفكر، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٣٧ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.

٣٨ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المعروف بتفسير الآلوسي: لمحمود الآلوسي البغدادي، تحقيق: عليٰ عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٤١٥ هـ.

٣٩ - زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٤٠ - زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٤١ - سنن ابن ماجه: للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، كتب حواشيه: محمود خليل، الناشر: مكتبة أبي المعاطي، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبع.

٤٢ - سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبع.

٤٣ - سنن الترمذي: لمحمد بن عيسىٰ أبو عيسىٰ الترمذي السلمي، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون تاريخ الطبع.

٤٤ - سنن الدار قطني: لأبي الحسن علي بن عمر الدار قطني، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٤٥ - سنن الدارمي: للحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.

٤٦ - السنن الكبرىٰ: للإمام أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، وفي ذيله الجوهر النقي لعلاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني. الطبعة الأولىٰ؛ الهند: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٤٤ هـ.

٤٧ - سنن النسائي: لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

٤٨ - شرح مشكل الآثار: لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، بدون بلد الطبع، ١٤١٥ هـ-١٤٩٤م.

٤٩ - شعب الإيمان: للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، طبعة مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٣م.

٥٠ - صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفىٰ الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٣٩٠ – ١٩٧٠.

٥١ – العناية شرح الهداية: لمحمد بن محمد البابرتي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٥٢ – فتح العزيز بشرح الوجيز، والمعروف بالشرح الكبير: لعبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٥٣ – فتح القدير: لكمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٥٤ – فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير المعروف بتفسير الشوكاني: لمحمد بن علي الشوكاني، طبعة دار الفكر، بيروت، بدون رقم طبعة، ١٤٠٣هـ.

٥٥ – الفروع: لمحمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينىٰ ثم الصالحي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٥٦ – الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: محمد محمد أحيد ولد ماديك الموريتاني، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ–١٩٨٠م.

٥٧ – لباب التأويل في معاني التنزيل المعروف بتفسير الخازن: علاء الدين علىٰ بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥ هـ.

٥٨ – لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولىٰ، بدون تاريخ طبع.

٥٩ – لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: الدكتور فاضل صالح السامرائي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٦٠ – المجموع شرح المهذب: لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٦١ - مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، بدون رقم طبعة، ١٤٢٥ هـ.

٦٢ - مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز، أشرف علىٰ جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر، طبعة رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١ هـ.

٦٣ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المعروف بتفسير ابن عطية: لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٦٤ - المدونة الكبرىٰ: للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٦٥ - المستدرك علىٰ الصحيحين: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري مع تعليقات الذهبي في التلخيص، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١ هـ-١٩٩٠م.

٦٦ - مسند الإمام أحمد: تحقيق مجموعة من الأساتذة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ.

٦٧ - مسند البزار المعروف باسم البحر الزخار: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولىٰ، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

٦٨ - المصنف: لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، عني بتحقيق نصوصه: حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٩ - المصنف في الأحاديث والآثار: لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حققه وصححه: محمد عوامه، طبعة دار قرطبة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ.

٧٠ - معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي: الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه: عبد الرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ.

٧١ - المعجم الأوسط: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، طبعة دار الحرمين، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ.

٧٢ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١١هـ.

٧٣ - معرفة السنن والآثار: لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، ودار الوعي، ودار قتيبة، كراتشي بباكستان، حلب، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٧٤ - المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي، بدون دار الطبع، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٧٥ - مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان بن عدنان الداودي، دار القلم، والدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

٧٦ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: لأبي زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ه.

٧٧ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٧٨ - النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ-محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٧٩ - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقىٰ الأخبار: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، الناشر: إدارة الطباعة المنيرية، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

٨٠ - الهداية شرح بداية المبتدي: لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الرشداني المرغياني، الناشر: المكتبة الإسلامية، بدون بلد الطبع، بدون رقم الطبعة، بدون سنة الطبع.

فهرس الموضوعات

المقدمة	٢
المبحث الأول: سجود التلاوة حقيقته وأحكامه	
المطلب الأول: تعريف سجود التلاوة	٦
المطلب الثاني: عدد سجدات التلاوة في القرآن الكريم	٧
المطلب الثالث: أساليب الأمر بالسجود	١٣
المطلب الرابع: حال المشركين مع الأمر بالسجود	٢٩
المطلب الخامس: حكم سجود التلاوة	٣٣
المطلب السادس: آداب سجود التلاوة	٣٤
المبحث الثاني: الساجدون لله وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	
المطلب الأول: سجود الملأ الأعلىٰ، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	٣٨
المطلب الثاني: سجود الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	٤٢
المطلب الثالث: سجود أولوا العلم، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	٥٢
المطلب الرابع: سجود المؤمنين، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	٥٧
المطلب الخامس: سجود عموم المخلوقات، وأثره في تعظيم الله تعالىٰ	٦٠
الخاتمة	٧٣
فهرس المصادر والمراجع	٧٥
فهرس الموضوعات	٨٤